د. الهام كلاّب

أغصان وجذور

مراحل من سيرة ذاتية

دار نلسن

- © جميع حقوق التأليف والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلفة

- تصميم وإخراج الكتاب: رويدى حامد
- الإشراف والإخراج الفني دار نلسن- لبنان
- لوحة الغلاف: رنا بساط، شرفة في جبيل،
  أكريليك على قماش 100سم× 200سم
- طُبع في بيروت – الطبعة الأولى 2021
- هاتف دار نلسن: 00961 1 739196
- هاتف د. إلهام كلاّب: 00961 3 221750
- البريد الالكتروني: darnelson@hotmail.com

المؤسس يوسف سلامة (1925-2000)

دار نلسن

الإهداء

إلى رفيق وجوزفين

الأشياء التي نحبّ معرّضة دومًا للفقدان... لكن الحبّ يعود دومًا بشكل مختلف.

فرانز كافكا

كان ذلك...

كان ذلك منذ أربع عشرة سنة عندما استضافتني وردة، الإعلامية البارعة المتحفّزة، في برنامجها الشيّق على إذاعة صوت لبنان: "سباعية من دفاترهم".

لملمت الحصى والمحار التي نثرتها على دروب حياتي الماضية وأطلقت العنان لذاكرتي المفعمة بالأماكن والأحداث، والناس، والأصوات، والمشاعر، واستسلمت لرواية تحوّلت في كل منعطف إلى جدول رقراق، يَشِفُّ كلما أمعنت شوقًا إلى ما أرويه.

كان ذلك منذ أربع عشرة سنة، ومنذ ذلك الوقت، بُحّت أصوات الأصدقاء والمحبّين، وازدادت نظراتهم عتبًا، وكدت أخجل من إلحاح مودّتهم، كي أنشر هذه المقابلة التي تركتها في غبار الأدراج...

وها هو النص الآن، أنشره كنسمة أمل بعدما أغسقت الدنيا وتحوّلت سعة الآفاق في لبنان إلى سعي مأساوي لطريق نجاة... أنشره وأنا على ثقة بأنه ليس فقط استعادة لذكريات مرهفة موحية، تلقفتها ونعمت بها عندما هززت شجرة حياتي، بل هي شهادة حياة في مرحلة توهّج لبنان وسماحة أبنائه وألق إبداعه، كما هي حصيلة ما أتلمّسه الآن في قلبي وعقلي من شجاعة وحب ورجاء.

هو ماضٍ يتردّد صداه في ذهني كإلحاح أغنية، وكانهمار متواصل لماء حي... لذا حاولت أن أحافظ على شفهية هذا النص، فتركته ينساب على سجيّته، دون أن أبدّل كلمة أو أصحح بناء جملة. ومن خلال اختلاط العامية بالفصحى، احتفظت بإيقاع تنفّسي وحماسي عند روايته، كما بعفوية فقراته التي ربما نفحته بحرارة الروح ونبض الحياة وسلاسة الرواية.

كان ذلك سنة 2007 وكنت أسرد أمام الميكروفون في الحلقة السابعة والأخيرة، مسرى حياتي الهانئة، مطمئنة إلى نفسي وإلى لبنان... وإذ بالإرسال يتوقف فجأة وتكرارًا لخبر عاجل عن معارك قاسية بين الجيش والإرهاب في نهر البارد شمالي لبنان...

راودني الإحساس بخريف ما... وبأوراق يابسة تتساقط على قلبي.. وبعواصف تطيح بما تزرعه الحياة فينا من نسغ الفرح وجذور القوة وغصون الانطلاق الحر...

اليوم وأنا أنشر هذا الحقل من الزهور والثمار أحاول إزاحة الزمن الحاضر بزمنٍ مضى، باطمئنان فلاح يعتبر الكون حديقة إلهية وترابًا خصبًا وفصولا يانعة، وأكاد اعتذر للقارئ عن ثوب الفرح في كاتدرائية مهدّمة، وفي نفسي قلق شديد وحزن كبير واطمئنان مفقود ويأس ملجوم.

لقد حاولت أن أنقل فرح هذا النص وتوهّجه، كمن يتأمل بين دفتي كتاب قديم، بتلات ورد احتفظ بها من ذكرى حميمة، أو كمن يحتفظ مَن غدر به الزمن، بأيقونة مباركة يعلّقها حول عنقه لتحميه من

اليـأس واحتـراق الآمـال وعتمـة المسـتقبل، متواطئًـا معهـا كـل صـباح لاستعادة شرقطات الروح.

الآن تواجهني الحياة، ويواجهني الوطن بهذا الانحدار الكبير إلى هاوية الفساد والفقر والبؤس والفجيعة، وكأن لبنان، هذا الوطن المثال الذي التمع كشهب خلّاب، يتحوّل إلى جوهرة في تراب النفايات تاركًا أبناءه يتامى على رصيف البؤس.

لقد عايش جيلنا ألق مرحلة التوهج وإبداعها وحريتها... كان لقاؤه بالحياة مصافحة ثقة واطمئنان وانطلاق إلى كل أنحاء العالم، وكانت حقيبة سفره توقًا إلى معرفة واكتشاف وتفاعل ونجاح... اليوم، تحوّلت هذه الحقيبة إلى هجرةٍ وانكسارٍ وأسًى وحنينٍ مكتومٍ وحفنة تراب من وطن هارب...

ولكن لبنان تراب ثمين يحتضن دومًا البذور الواعدة، ولو تكسّرت أغصان، وتهدمت بيوت، وهُجّرت آمال... ستبقى الإرادة العجائبية للحياة.. وللحياة الأفضل.. الأفق الوسيع للبنان ولشبابه..

اليوم.. إذ أتلمّس الظلال على جدران الماضي.. أكشح الغيوم بيدي... ربما تنتظرنا شمس... هناك..

د. إلهام كلّاب

أيار 2021

1

عمشيت... ملعب الطفولة

عندما صرخت رجّون، قابلة القرية في عمشيت: "إجتك بنت يا جوزفين"، سادت تمتمات عند نساء الحي الحاضرات...

بنت! الآن؟ ليتها كانت صبيًّا لتعوّض على أمها غياب صبيين صغيرين أخوين توفيا قبل ولادتها! تمتمات ما أن تعالت حتى أسكتتها نظرات أمي المتعبة والعاتبة، وصوت أبي الواثق والسعيد: "سنسمّيها إلهام".

كنت ثالث ابنة يُرزق بها أهلي ولم أكن الأخيرة. إذ تكوّنت عائلتنا من ست بنات وثلاثة صبيان، وكان الناس يتندّرون حولنا: إن رفيق- والدي- يحبّ البنات وقد أعطاه الله حسب نواياه.

أعطاه الله حسب نواياه... نعم... لذا كان ينفخ في أذن كل منا عند ولادتها، وشوشات وكلمات، حوّلتنا إلى نفوس حرّة شجاعة، كما وسمتني طوال حياتي في خياراتي الإنسانية وفي مساري الفكري وفي نضالي مع النساء وفي سبيلهنّ.

من طفولتي في عمشيت، أذكر أنني ولدت في بيت حجري جميل هندسه أبي وأشرف على بنائه حجرًا حجرًا في حيّ "المعبور"،

ورسم نوافذه وأبوابه الحديدية، بأسلوب "الفن الزخرفي" الذي ساد أوروبا في العشرينيات وكأنه أراد عفويًا أن يفتحها على عالم الحداثة الذي كان يتوق إليه..

عندما انتقلنا إلى جبيل، تحوّل هذا البيت إلى مدرسة رسمية ثم إلى مركز لبلدية عمشيت، مما طوّره وحفظه من عاديات الزمان، فاطمأن قلب أبي عليه، وكأنه أحد أبنائه الذي اختار مصيرًا يليق به.

كان أبي الولد الثاني في عائلة استطاعت إرسال الولد الأكبر شفيق للدراسة في مدرسة الصنايع في بيروت؛ بينما درس أبي في المدرسة الوطنية في عمشيت لأديب لحود التي كانت مدرسة للوطنية ولحماية اللغة العربية وتراثها الأدبي. واستمرّ أبي حتى سنواته السبعين يصدح بقصائد المتنبي وشوقي والملاط التي كان التلاميذ يستعيدونها على مسرح المدرسة في ختام كل سنة.

كان أبي جميلا وطموحًا ومميَّزًا بين أقرانه بنوع من الأناقة الطبيعية، والذكاء اللمّاح، والقلب الكبير، وهي صفات كوّنت شخصيّته ورافقته طوال حياته مخمّرة بالعمر والتجربة وتساؤلات الأيام وكدماتها.

في مصنع النجارة في عمشيت، والذي كان يملكه جدي في العشرينيات، عشق أبي الخشب ورائحة الخشب، وحدس بما يمكنه أن يبتدع في عروق هذه المادة العريقة الثرية العطرة من أحجام وأشكال.

انتقل إلى جبيل ونقل العائلة معه، لأن المدينة- وكانت جبيل قرية تحاول أن تكون مدينة- موقع الانطلاق والتخطّي الرّحب لعقله ولتربية أولاده، حيال هدوء القرية التي تنعم بحدود إلفتها المستعادة.

كانت أمي بالأحرى، من استشرف هذا الأفق وحفّز على ارتياده.

في جبيل أسّس أبي مصنعًا، جمع فيه شبانًا حرفيين، درّبهم وأحبّهم واهتمّ بهم وتبنّاهم على طريقة معلمي الحِرَف في القرون الوسطى، بالحب والرعاية والانضباط والدقة، والتربية على طريقة حياة.

كان أبي يغذي ذوقه وعينه من خلال رسوم ومجلات يرسلها له أقرباء مهاجرون في أوروبا وأميركا ومن خلال اقتناء كتب عن متاحف الأثاث في العالم.

ولكن الأهمّ من كل ذلك أنه درّب نفسه تلقائيًا على الذوق والإتقان في هذه الحرفة، حتى أصبح الإتقان والصدق والنوعية من الصفات اللصيقة باسمه، وأصبح إبداعه للأثاث وبحثه الحثيث عن الجمال في مكامن الخشب، فنًا راسخًا وأكيدًا يغمر نفسه بالغبطة والرضا.

كنت أراه يرفض ابتداع أثاث لمن لا يملك ذوقًا ورهافة، ولو دفع الثمن مسبقًا، ويهدف من جهة أخرى إلى ابتداع الأثاث لمن ينبض فيه حسّ الجمال، ولو لم يكن باستطاعته تأمين الثمن. كان يقول لنا: "متى

أنجزت عملاً ونظر إليه من ينبض ذوقًا فإن جماله يزداد، أما إذا نظر إليه صاحب الذوق المتبلّد، فسيضرب عملي بالبشاعة والبؤس".

التقى أبي أمي في عمشيت، حيث كان سكانها يشكّلون عائلة كبيرة... هم أقرباء في العائلة الواحدة، دون أن يكونوا أقرباء. فهو المهني الحرفي، لم يكن بإمكانه التوق إلى اجتذاب صبية من ارستقراطية عمشيت القديمة المتحفظة، صبية ترافقها المربية من بيتها إلى قداس يوم الأحد، لتشاركه الحياة والمصير في منزل عائلي كبير، يعيش فيه الأب والأخت والأخ ويتميّز بباب مفتوح دومًا للجيران والزوار والأقارب. كانت أمي من عائلة أرستقراطية ثرية كوّنت ثروتها من تجارة الحرير مع مدينة ليون الفرنسية منذ القرن التاسع عشر، وجلبت معها ليس فقط الثروة بل العادات والتقاليد المحافظة وحتى الأسماء! ففي عمشيت حيث يسمّى الرجال يوسف وبربر ومخايل وجبرايل وطانيوس، كانت النساء تسمّى كاترين، فيرجني وإفلين ولوريس وحتى أفرازيا اسم جدتي الصعب والذي ورثته أختي، والتي دعوناها غالباً بإسم "فاديا".

هذه العائلة كانت مسيَّجة بتاريخها العريق وأملاكها الشاسعة وبيوتها التراثية، وموقفها المترفّع الذي يقارب التقشف أمام بهارج الحياة، وهو ما اعتنقته أمي.

كانت أمي السادسة من ست بنات. ثلاث منهن اخترن ثوب الرهبنة وكنّ من مؤسسات رهبنة العائلة المقدسة المارونيات. أكبرهن كانت رئيسة دير الأشرفية الذي احتفظ بواجهته الخارجية حتى اليوم،

كما كانت منذ صبا أمي، عندما كانت تلميذة تدرس وتواظب على دروس البيانو الذي تحبّ.

لحق بها والدي إلى بيروت، ومن خلال إقناع الراهبات بقدرته على تصحيح إيقاع ضربات البيانو الخشبية، وبتبرّعه لبناء المسرح الخشبي للاحتفال الذي يقام في نهاية السنة الدراسية، استُقبل كثيرًا في هذه المدرسة، والتقى أمي مرارًا.

وذات يوم استفاقت المدرسة على غياب جوزفين... كانت جوزفين التي ذهبت "خطيفة" مع رفيق تختبئ مرتجفة في الديمان وراء جذع شجرة أرز – كثيرًا ما دلّتني عليها بحنان – منتظرة أن يحصل رفيق على ورقة من البطريركية تسمح بزواجهما.

كلّف تبرع أبي المدرسة الكثير، إذ إن عائلة أمي التي كانت تساعد المدرسة سنويًا لسدّ تكاليفها، توقّفت احتجاجًا وغضبًا.

أسوق كل هذه التفاصيل لأنها أثّرت كثيرًا على مسار حياتي، ولأن أمي وأبي كانا حقًّا مدرستي الأولى، النواة الصلبة التي كوّنتني وشكّلت شخصيّتي واختياراتي ورفدت طموحاتي، وبقيت دومًا مرجعيتي الأولى في كل ما قمت به.

لم تكن حياة جوزفين ورفيق معبّدة بالورود، بل تخلّلتها صعوبات عديدة وأحزان كثيرة لفقدان ثلاثة أطفال، كانت المسافة الطويلة الفاصلة بين عمشيت وبيروت سعيًا إلى طبيب اختصاصي كافية للقضاء على

نبضهم الصغير، وهم في حضن أمهم.

ولكنها كانت حياة حب واحترام وتعلّق متبادل، وحسّ مسؤول وقادر على مواجهة الحياة. وكانت باقة زهور عمشيت البرية التي حملتها أختي الكبيرة رشيده إلى جدّها- أب والدتي- وهي في التاسعة من عمرها، مفتاح المصالحة بين أمي وأهلها الذين قاطعوها سنينًا عديدة.

كانت أمي امرأة فائقة الذكاء، تملك حسًّا فائقًا للفكاهة وقدرة جسديّة إلهيّة تمكّنها من القيام بخدمة عائلة من تسعة أولاد وكأنها تتنزّه في حديقة، كما تمتلك قدرة نفسية لا تجارى في متانتها، في جسد رشيق نحيل، ووجه صبوح تضيئه جبهة عالية ونظرة لامعة وابتسامة ساحرة.

أصبح اسمها عند الأقارب والجيران وعند عماتي خاصة "الست جوزفين" التي تُقصد للنصيحة والمشورة وراحة القلب... ولتقدير ما تبدع يداها من ثياب وكنزات وأردية بأسلوبها الراقي والرقيق.

كانت كل عمّة من عمّاتي تعتبر أمي أمها، وتأخذ تحت جناحها ولدًا مفضّلا من إخوتي. كنت حصّة عمّتي توفيقه التي كانت دومًا تخبرني في عمشيت تفاصيل طفولتي كأنها البارحة.

ولكن شكّلت لي عمّاتي شفيقه ورفيقه وتوفيقه وماري نموذجًا لما تعنيه هناءة حياة القرى وقناعتها ورضاها. كانت كل منهنّ بذكائها العملي وقدرتها العجائبية على الحب والاحتضان، وقبول الحياة، مثالا

وملجأ أعود إليه لأطمئن أن الدنيا بخير، وأن للنساء قدرة عجائبية على الحبّ والتكيّف والتضحية في بطولة يوميّة صامتة لا تضاهى.

في تلك الأيام، كانت أحياء عمشيت معدودة: المعبور، القاطع، الساحة، حي التينة وغيرها... ولكن ما كان يميّزها وما نشأنا على تقديره والإعجاب به واحترامه، هو ما تمتلكه هذه القرية من قيم وثقافة وعراقة.

ففي عمشيت، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، أُنشئ مستشفى مجاني، شيَّده أحد أجداد أمي، وأوصى في وثيقة رسميّة بمداواة كل مريض في بلاد جبيل والبترون، و"من كل الملل والنحل"، أي، بينما كانت الطوائف تتقاتل في ستينيات القرن التاسع عشر في جبل لبنان، كانت عمشيت تزهو بمستشفى لكل الطوائف يستقبل ويعالج بالمجان كل قريب وغريب.

في عمشيت تأسَّست في هذا القرن مدارس خاصة لتعليم الفتيات، وأقيمت مقبرة عامة حملت اسم "جميع القديسين" قدَّمها فاضل من عائلة كرم كي تؤمن لكل إنسان، من أي طبقة أو انتماء، موئلاً أخيرًا جليلاً يرقد فيه بسلام وسيّجها بشجر السرو العابق الخضرة كما أوصى أن يدفن مع عائلته فيها، مؤمنًا بمساواة التراب ورفعة التواضع.

أذكر هنا أننا ترعرعنا ونحن نصغي إلى أهلنا يذكرون أجدادهم بإعجاب وفخر، كما كانوا يذكرون أدباء عمشيت وصحفها ومطابعها ومحبة أهلها للعلم والعطاء المجاني، كأنهم يخطّون لنا الطريق.

كان الحي الأساسي هو قلب عمشيت حيث البيوت التراثية لعائلة زخيا طوبيا الكلّاب، وعائلة كرم وعائلة لحود وما تفرع عنهم من عائلات حملت كنية أجدادها، وحيث بيت جدي لأمي لا يزال حتى الآن يجاور تحت شرفته كنيسته الخاصة ومدفن العائلة الخاص.

هذا البيت التراثي العريق كان يزهو بمكتبته التي حوت مخطوطات عديدة نادرة بالعربية والسريانية والتي جاورت جدرانًا كلسيّة حفظت في فجواتها كتبًا نادرة وثمينة لحمايتها من غدر الزمن ومن ظلم السلطة. زيّنت جدران هذا البيت نسخ من لوحات عصر النهضة والمدرسة الانطباعية والمدرسة الواقعيّة، وقد طرّزت بعضها على الساتان بخيوط من حرير، أيدي خالاتي الراهبات.

في قلب هذا الحي، كان بيت زخيا طوبيا الكلّاب الذي أقام فيه المستشرق الفرنسي إرنست رينان في منتصف القرن التاسع عشر وما زال حتى اليوم يحفظ بأمانة غرفته ورسائله ومقتنياته الخاصة ومؤلفاته. ويجاور هذا البيت الذي فارقت فيه أخته هنريات الحياة المدفن الذي ضمّ رفاتها إلى رفات أجدادنا، وقد امتزج ترابها بترابهم، حيث تركها رينان لأن "أرضنا أدفأ من أرضهم"، كما أقنعه زخيا مضيفه برفق وحزم.

في عمشيت موقع آخر لا يزال يثير حيرتي حتى الآن هو مغارة صالح. مغارة في لحف الجبل لم نجرؤ يومًا على دخولها، ولكنّ أخبرنا من دخلها بأنه تلمّس على جدرانها أسماء عائلات من عمشيت انقرضت رعبًا وجوعًا في الحرب العالمية الأولى.

وفي عمشيت... أشجار تين، التين الأبيض الشهير... مساحات من الأغصان المتشابكة التي ترسم أجمل اللوحات التجريديّة في سمائها، تنافس زهور اللوز البيضاء، وتجثو تحت نخيل عمشيت الذي يلوّح بأغصانه، شعنينة متواصلة فوق كل بيوتها.

كانت عمشيت قرية من الأهل المتحابين، الكل يعرف الكلّ، والطرقات للأنس، والبيوت للجميع.

لكن، بعد الحرب الأهليّة الأخيرة التي فرضت تهجيرًا قسريًا تملّك في عمشيت العديد من الناس الذين وفدوا من مناطق عديدة في لبنان، فلم يعد الجميع يعرف الجميع.

وفي اليوم الذي وقفت فيه في ساحة عمشيت، ولم يهرع إليّ أحد سائقي السرفيس أو أحد المارّة في الساحة مناديًا إياي باسمي ليعرض عليّ إيصالي إلى جبيل...

وعندما لم يعرفني أحد... أدركت أن عمشيت التي عرفت، أصبحت الآن بعيدة، بعيدة جدًا، وأن الحلم والذكريات أصبحا ملجأ الحنين!

2

جبيل... أحلام الصبا

كانت جبيل ملعب طفولتي ومسرح صباي كما غدت موقعًا مميزًا جذّر انتمائي إلى عراقة التاريخ وعزّز شغفي بجاذبية الحلم.

بيتنا في جبيل كان كأرجوحة جميلة بين حقول الليمون والموز والرمّان، على مدّ النظر... من موجة الشاطئ حتى سور المدينة القديم.

أما طريق المدرسة، فكانت كطريق الحقول، نتفيّأ فيها الشجر، والقناطر القديمة، وجدران كنيسة مار تقلا الأثرية، ومدخل مغارة مَنعَنا عن ارتياد مجاهلها، تحذير الأهل من جنيّة تنام فيها، وتسحبنا من جدائل شعرنا إذا أقلقنا سباتها.

كنا نذهب، إخوتي وأنا إلى مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في جبيل في موكب، مع أولاد الحي، وكأننا في مهرجان.

كانت المدرسة البيت الثاني، فلا جدران ولا مجاملات تفصل بين معلمة المدرسة وجارة الحي وأفراد العائلة، وما بين المدرسة، والحي، والبيت... كان الجميع يعرف أسرار الجميع.

بلى! أخفيت سرًا عن أهلي وأنا في الثامنة من عمري، عندما أتت الرئيسة العامة لزيارة المدرسة، ووقفنا احترامًا لها وحييناها كما يجب بصوت واحد: "صباح الخير أيتها الرئيسة الجليلة". دخلت وكلّمتنا عن لبنان كما عن العالم وعن بلدان بعيدة، وسألتنا: نحن لنا راهبات يعملن في دير في بلد اسمه تشاد... هل تعرفن ما هي بحيرة التشاد؟ هي بحيرة يعيش حولها الناس بالفقر والمرض والبؤس ويحتاجون إلى المساعدة، فمن منكنّ تتبرّع بالذهاب إلى تشاد؟ فتحت عينيّ دهشة وفاض قلبي بالحماسة الإنسانية، ورفعت يدي، وسط همهمات رفاقي الهازئة والمستنكرة، وقلت: "أنا أذهب إلى بحيرة تشاد!".

وفي حيرة الأطفال، لم أنم أسبوعًا كاملا وأنا أفكّر في كيفية إعلام أهلي بهذا القرار، إلى أن ضحكت أمي يومًا من حيرتي وقالت لي: "عندما تنجحين في شهادة السرتيفيكا نبحث في الموضوع!"

أخذت شهادات عديدة... ولكني لا أزال إلى اليوم، أتحسس في قلبي دعاء بحيرة تشاد، كلما تملكني حماس أمام ظلم وبؤس!

كانت المدرسة تمتدّ أيضًا إلى حقل الآثار قرب قلعة جبيل حيث كنا نمضي أوقاتًا لمراجعة الدروس وكتابة الفروض فوق حجر أثري هو الكرسي وأمام تاج عمود هو المكتب، وحينما يحلو لنا الهرب المقنّع من سلطة الأهل.

في هذا الحقل الأثري المفتوح الذي مرّت أيدينا الصغيرة متلمّسة كل أحجاره، كنا نجاور جراراً فينيقية قديمة- لا أدري لماذا اختفت الآن- مفتوحة حتى نصفها، وهي تحوي هياكل عظمية مكوّرة كالجنين في بطن أمّه وآنية فخارية وهياكل عظمية لا تزال تحمل تعاويذها وزينتها، وأذكر أننا كنا نمرّ قربها مجانبين أطرافها بأقدامنا الصغيرة برفق واحترام كبيرين. لم نحاول لمسها يومًا كأنها عظام أجداد نحبّهم ونألفهم فلا يرعبنا الموت فيهم، ونحترم راحتهم، فلا نبعثر شيئًا من آثارهم، مع أننا لم نكن نعرف القيمة المخفية والأثرية لهذه اللُّقى.

أما المدرّج الروماني قبالة البحر، فكنا نقف على منصّته نردّد بعض العبارات المألوفة من تمثيليات شكسبير أو نتلو القصائد المدرسيّة وكأننا سوفوكل، أو ننزل قرب أحجاره ونقيس طولنا كل سنة بعلوّ أعمدته الصغيرة.

قرب الآثار، كانت كنيسة مار يوحنا الأثريّة الصليبيّة، التي يطلّ شباك المدرسة على جدارها الشرقي، وعندما كان ينتابني الضجر في صف الحساب، كنت أعدّ حجارتها وأحفظ في ذهني أماكن نمو الأزهار والنباتات في خفايا حجرها الرملي. كنت أعرف أن بين المدماك الرابع والخامس تطلّ أغصان شجرة تين صغيرة لا تورق قبل نيسان، وتتفتّح تحتها زهرة منتور بنفسجية تزهر عنادًا طوال السنة. وأعتقد أن ما تعلمته من مبادئ حساب أولية إنما يعود الفضل فيه حسب قول معلمتي إلى تأمّل حجم الكنيسة وعدّ أحجارها.

كان هذا الأثر التاريخي أمامي، يبدو لي قمّة الكمال، وعندما درست علم الآثار وبدت لي عوائد الدهر التي قصفت نصفه، واكتشفت تدخّل البشر الذي رمّم بعضه، انتقل ذهني بصعوبة وأسى من الحلم إلى العلم.

بيتنا في جبيل، كان على صورة أمي وأبي، مضيافًا رحبًا، يفتح أبوابه على مصراعيها صباحًا ويقفلها مع العتمة. كان بيتنا، خاصة، ملتقى لمثقفي المنطقة وأساتذتها. وكان أبي يستضيفهم ليلة في الأسبوع ويدعوني للاستماع والمشاركة. في هذه الجلسات، تكوّنت في ذهني صورة الرجل، صورة الجبهة العريضة الرصينة والنظارات، وهي صورة طبعت صداقاتي وخياراتي زمنًا حتى تنوّعت ملامحها مع تنوّع تجاربي وعلاقاتي.

وكان يا ما كان من رغد العيش في هذه العائلة التي نعمنا بثقافتها وديناميةِ أيامها.

في جبيل كانت تنبيهات الأمهات صارمة: لا تتكلموا مع غرباء على الطريق.. ولم يكن يحلو لي الكلام إلا مع هؤلاء الغرباء الذين يفدون سيّاحًا إلى مدينتنا، يشدّني إليهم جاذب الاختلاف وحس الاكتشاف، ويحميني كما تعتقد أمي، ملاك حارس يلتصق بكتفي، عندما كنت أصل دومًا برفقة سيّاح غرباء، دعوتهم دون معرفة أسمائهم لتناول فنجان قهوة في بيتنا.

ازدان هذا البيت الرحب بمكتبة كبيرة فاق عدد كتبها عندما توفّى والدي، ما يقارب الاثنيّ عشر ألفًا، اشتراها أبي، أكاد أقول بعرق جبينه، لولا وراثته عن أبيه لمجموعات مجلّتي "الهلال" و"المقتطف" وكل روايات جرجي زيدان.

كان أبي يذهب أسبوعيًا إلى بيروت، ومنذ ثلاثينيات القرن الماضي، ليتعرّف إلى جديد المدينة وليعود محمّلا بالكتب وحتى بالمجلات الأسبوعية التي لم تكن تصل إلى جبيل. ويحلو لي أن أذكر كتاب "جلنار" لميشال طراد الذي عاد به أبي ونظّم لنا أوقاتاً لقراءة هذه القصائد وحفّزني على حفظها، وسمّى ابنة عمتي الوليدة باسم الكتاب... وكانت جميلة مثل قصيدة.

أذكر أنه اشترى مجموعة "لسان العرب"، وعندما كان يسير بي مرة في شارع المعرض في بيروت، لفته اسم محل حلويات سُطِّر بخطوط عربية جميلة، فأوقفني وطلب مني أن أرسم على ورقة هذه الخطوط كي أكتب بالحبر الذهبي اسم "لسان العرب" على المجلّدات التي اشتراها، والتي لا تزال حتى اليوم في مكتبة البيت.

تميَّز أبي بذائقة فائقة الحساسية في اختيار الكتاب الجيّد، هو الذي تلقى دروسه في مدرسة القرية في بداية عشرينيات القرن العشرين. وتجلى شغفه الهائل بالكتاب، ذات يوم، عندما اندلعت الحرب الداخلية في لبنان، وابتدأت الناس تخبئ ليراتها لمستقبل مجهول، عاد إلى البيت محمّلًا بعشرة

أعداد لمجلة أثرية نادرة مختصة بالتراث والتاريخ، وجدها معروضة للبيع في سوق جبيل. ولولا كرمه المستفيض، لقلت تهكّمًا إن عدد صفحات الكتب التي اشتراها يكاد يوازي أعداد أرغفة خبز العائلة اليومي.

امتلك أبي ذكاءً فطريًا مشذّبًا، وحسًّا نقديًا، وقلبًا كبيرًا رؤوفًا. كان اسمه عند الجميع "المعلم رفيق" يدعونه احترامًا وتهيّبًا لسعة معرفته ولعمق صدقه، ويقصدونه للمشورة في كل قضية: من شراء أرض، إلى هندسة بناء، إلى اختيار بيت، إلى تنظيم حياة...

تربّيت في بيت مفتوح الأبواب، يستدعي الآخرين طبيعيًا ويرحّب بقدومهم، بيت له عتبة سهلة كما يقال، على الرغم من درجه الطويل. واعترف أنني عندما سافرت إلى باريس وأقمت في بيت جامعي، كان صعبًا عليّ، أن أغلق باب غرفتي المطلّ على الممر، حتى وأنا أعمل، وكأنني أخون بيتي الأول.

سعى أبي إلى تعليم بناته وجاهر بأفكاره الثورية في مجتمع تقليدي يعتقد أن التثمير في تعليم البنات لا يجدي نفعًا. فكان يناقش ويحفّز ويجعل من المساواة في فرص التعليم بين أبنائه وبناته، شعارًا لقناعاته الراسخة التي يودّ نشرها في محيطه.

تاق أبي إلى مجتمع متطوّر وعلماني يكسر أسر الطائفية في مجتمع له تديّنه المتواضع البسيط. فكان يجاهر بفكره وبنقده ويقول: "أريد أن تكونوا قلبًا مُحبًا وأرواحًا حرّة حيال أي سلطة مهما علت"...

فكان طيرًا مغرّدًا في غير سربه.

أما أمي فكانت تمثل وجه العقلانية والتروّي حيال اندفاع أبي، وثورته على أي استكانة وظلم، وريادة أفكاره المعاصرة. كانت حجر الثقل حيال اندفاعه نحو الريادة والمعاصرة، حتى آخر أيامه.

أكاد أشبّه أمي بالإلهة الهندية التي تملك عشرة أذرع. كانت ترفض وجود خادمة في البيت كي لا تؤثر على تربيتها لنا، فتقوم بكل أعمال البيت، وتؤمن لنا الغذاء، وتستقبل الزوار والأقارب، وتخيط لنا ثياب الصيف، وتنسج كنزات الشتاء بذوق رفيع، وتقرأ كثيرًا وكثيرًا، وتعاين مشاكل الأقارب والجيران، وتضحك كثيرًا لامتلاكها روحًا نقدية فكهة، تجعل من يراها يعتقد أنها في إجازة متواصلة.

كانت بالنسبة لأبي المرجعية التي يقيس إمكاناتنا بها، ويحفّزنا على التشبه بها، ويعتقد أننا مقصّرات أو مبتدئات حيال قدراتها.

في عطلة الصيف، كان البيت يشابه النادي وكان لأمي أن تجد طريقة فعالة لتثمير وقتنا.

عرضت علينا أولًا أن نذهب إلى القداس اليومي في كنيسة مار يوحنا المجاورة لبيتنا كي نعود إلى البيت عن طريق الميناء الأثري الذي كان مجموعة صخور ومضرب موج، قبل كتابة فروض الصيف.

في القداس، كنا غالبًا لوحدنا- مع امرأة كهلة تخدم الكنيسة اسمها صانتا- وفي أحد الأيام نظر الكاهن إلى جمهورنا الصغير، عمرًا وعددًا، وقال: "من منكم يستطيع قراءة الرسالة؟" كنت أكبر إخوتي

وأكثرهم قدرة على القراءة. ولا أزال أذكر حتى اليوم، كيف اقتربت من السياج الرخامي الأبيض ولم يفارقني حتى اليوم ملمسه البارد المصقول، وأمسكت بكتاب الرسائل وقرأت "رسالة القديس بولس إلى أهل كورنتيا".. هلّل إخوتي لهذا الإنجاز، ولكن في النهار التالي، زارنا الكاهن وقال لأمي: "ابنتك، اسم الله، بارعة في القراءة..." ثم أسرّ إليها: "ولكني أودّ أن تفهميها أن المرأة لا تقرأ الرسائل على المذبح". كنا في خمسينيات القرن الماضي، وكان عمري الصغير لا يسمح لي أن أعرف بأني امرأة، وبأني ممنوعة من القيام بأمور عديدة ليس أقلّها قراءة الرسائل على المذبح...

بعد عقود، عندما دعاني الكاهن لقراءة الرسالة من على المذبح يوم وفاة والدتي، تأثرت امتنانًا وعادت إليّ ذكرى القراءة الأولى التي تراكمت مع غيرها من أحداث لتزيد من قناعتي بتطوّر أوضاع النساء، ومعنى النضال في هذا السبيل ولو في أصغر التفاصيل.

إنما كان لنا -إخوتي وأنا- في جبيل في مراهقتنا شهرة واسعة أكاد أقول "أدبية".

فقد باشرنا في البيت إصدار جريدة أسبوعية أسميناها "الصحيفة المنزلية"، أصدرنا منها حوالى خمسين عددًا، ومجلة شهرية أسميناها "أضواء" صدر منها حوالى سبعة أعداد.

كنت أرأس التحرير بكل جديّة ومسؤولية، وكان لكل من إخوتي مسؤولية صفحة من الصفحات. وعند صباح صدور الجريدة، كان يشتريها أبي منا، نحن الستة، بست ليرات. كنا ننشر فيها آراءنا، حتى السياسية، وتحقيقات عن المنطقة أسميناها: إعرف بلدك، وأخبار العلم والأدب. وعندما انتشر خبرها في جبيل، أفردت لنا أمي في البيت غرفة للتحرير، وألصقنا على بابها علبة حلوى فارغة، أسميناها صندوق بريد وجعلنا له رقمًا.

تجربة "الصحيفة المنزلية" شغلت كل مراهقتنا فكنا نقرأ كثيرًا في سبيل من نسميهم "قراء الصحيفة"، ونتمرّس على الإخراج الفني للصفحات، ونلتقط الصور، حتى صياغة بعض الإعلانات الفكهة لمن أسدى إلينا خدمة أو مساعدة، من أفراد العائلة أو من حرفيي السوق القديم.

في تلك الأيام، وللأسف، كنا نسطّر كل الصفحات يدويًّا ولم نكن بعد قد عرفنا الفوتوكوبي، وكانت "الصحيفة المنزلية" نسخة واحدة تُعار إلى الجيران والأصدقاء وتعود أحيانًا أو تخبّأ قصدًا.

وأذكر أنني من جملة من عرفت من "السيّاح الغرباء" سيدة كانت قنصلا للسفارة الأرجنتينيّة في بيروت، أطلعناها على الجريدة والمجلّة، فاحتفت بنا في سفارتها في بيروت. أذكر بحنين ألما وجولييت غوميزباز ورسائلهما حتى بداية الحرب الأهلية، وعندما استنفدتا وسائل الاتصال، وصلتنا منهما للتذكير صورة قديمة جمعتنا معهما على شاطئ جبيل ونحن

ننشد النشيد الوطني... ربما استنكارًا لحروبنا... ربما حنينًا إلى لبنان وإلى زمنه الجميل.

أذكر أيضًا مع إخوتي لقاءنا العفوي قرب كنيسة جبيل بالأب هنري كازيل الأستاذ العلاّمة في الجامعة الكاثوليكية في باريس والذي كان مستشرقًا يراسلنا باللغة العربية مع ذكر كل أسمائنا على بطاقة البريد. وكم كان فرحي كبيرًا عندما سعيت إلى لقائه وتعرفت بعد سنوات العمر الطويلة إلى مؤلفاته ومرتبته العلميّة الكبيرة التي لم يجاهر بها، وغمر قلبي فرح طفوليّ عندما تذكّرت أننا قدمنا أنفسنا إليه بصفة من نال شهادة السرتيفيكا أو سينتقل إليها في السنة التالية.

كنّا أنا وإخوتي نعيش في هذه الجنّة، ليس فقط من دون همّ، بل في آفاق حب وحلم وعالم نقي.. كانت رشيده الإدارية الرصينة القادرة كبرى أخواتي، وقد قرأت كل كتب المكتبة وأصبحت دليلنا إلى كتبها.

كانت نهاد الجذابة الجميلة ذات الذوق الجمالي والذكاء الاجتماعي والعنفوان والموهبة الطبيعية في تصميم الأزياء، كانت أسمهان– شبيهتي لدرجة التماهي ببعضنا البعض– وكانت فائقة الذكاء والنشاط والحسّ الاجتماعي الثاقب. وكان حنا، القانوني النظامي، المرتّب والحنون، وكان بربر الولد الجميل الساحر والساخر والمتمرس في العلاقات الإنسانية الرحبة. كانت فاديا الدؤوبة المرحة المختزنة للمسؤوليات العديدة. وكان كمال الولد المتعدد المواهب، المثابر، والنقي في حسّه الإنساني. بعد ذلك

أتت أختي الصغيرة أسامة مستقطبة رعاية الكبار، متميّزة بحسّ نقدي وبذكاء متنوّع الوجوه!

وكما تنوّعت مواهبهم الإنسانيّة تنوعّت مروحة اختصاصاتهم الجامعيّة، من أسمهان الأستاذة التي برعت في العلوم الجغرافيّة، إلى حنا الذي اختار دراسة المحاماة، إلى المهندسين بربر وأسامة في الإبداع المعماري والإنجاز التراثي، إلى ريادة د. فاديا في العلوم المخبرية البيئية، إلى تفوّق د. كمال في مجال اختصاصه الطبي... وكان أبي بالموازاة يُغني باعتزاز مكتبة البيت بالمراجع الرصينة المتعلقة بكل اختصاص.

من أجمل المشاوير في جبيل، المشوار الذي كنت أرافق فيه أمي إلى سوق جبيل العتيق، إلى دكّانة الياس موسى، بائع الأقمشة، هناك تعلمت منها ملمس القماش والشغف به وبنسيجه وألوانه ورسومه، وما يعنيه تحويل القماش إلى ثوبٍ وابتداع الأشياء من مادتها الأولى.

رافقني هذا الشغف حتى اليوم، حتى وأنا أعطي محاضراتي عن تاريخ الأزياء، ترنّ في ذهني خطوات أمي على حصى سوق جبيل العتيق، قبل أن نصل إلى مهرجان القماش والألوان والأحلام.

كنت أكبر في جبيل، ويكبر معي توقي إلى معرفة بلاد هؤلاء الغرباء وحياتهم وأفكارهم... كانوا نوافذ حياتي الصغيرة في جبيل، كما كانت مكتبة البيت نافذة أخرى، كما كان منظر البحر ورائحة البحر

والأفق الممتدّ وراءه حلم انعتاق وأنا أجلس سواء على صخرة اعتمدتها للكتابة- أسمتها أمي صخرة إميلي تيمّنًا برواية إميلي برونتي الشهيرة- أو على حصى الشاطئ المجاور لبيتنا أصغي لتململ أمواجه الصغيرة، أغرق قدمي في غباره الأبيض، وأمسك بحصاة ألقي بها في البحر... رسائل مجهولة، لا أعرف لمن...

3

باريس... شغف الحب والنضال

في جبيل، أحببت الطبيعة وتحولاتها وعشقت الزهور وحفظت مواسمها وسحرتني ألوانها وتفاصيلها حتى التولّه، ولا أزال ألمح في ثنايا العشب الأخضر زهورًا بسيطة لا يراها غيري أتأملها بشغف وأتلقى منها دروس حياة.

الدرس الأول كان من زهرة ممشوقة، صفراء البتلات، نبيذية القلب، تتخايل جمالًا أمام نافذة بيتنا في ظهيرة الصيف. وكنت أعِدُ نفسي، عندما يسمح لنا الأهل بالخروج إلى نزهة المساء أن أقطف واحدة منها.

لم أستطع وللأسف أن أقطف أي زهرة... لأن زهرة الباميا الجميلة كانت تقفل بتلاتها في المساء عندما أفتّش عنها ولا أجد لها أثرًا...

من انتظاري وتوقي، علمتّني هذه الزهرة معنى لحظة الانخطاف ومعنى ضياع الفرص.

الدرس الثاني، كان من أشجار كبيرة ونادرة زرعها والدي يوم وضع أول حجر لبناء البيت. أشجار جديدة اسمها غريفيليا، تشتعل حول الشرفات زهرًا برتقاليًا يجذب كل العصافير لطيب رحيقه، حوّلت أبي

حارسًا للعصافير من بنادق الصيادين العابرة. علمتني هذه الأشجار أهميّة الجمال المطلق، لزهر لا يحتاج إلى إقناع ثمر، ولعطاء يجود جمالًا دون حساب. لذا، كان ذهابي إلى بيروت انفصالًا عن أرض وجمال وبحر وإلفة وزهور.

ولكن من بنات جيلي، كنت تقريباً الوحيدة التي أنعمت عليها الحياة بإكمال تعليمها في بيروت. أن تذهب فتاة إلى بيروت وأن تنام تحت سقف لا يعتبر سقف بيتها -حتى لو كان مدرسة راهبات- كان مغامرة يرفضها محيطي ولا يتقبّلها إلا إذا كان أبي وأمي هما من قرّرا ذلك.

كانت المدرسة الداخلية في نهاية الخمسينيات صارمة قاسية، والنعاس الهنيء الذي اعتدنا عليه في البيت تحوّل إلى نظام مدروس، واللحاف الذي اعتدت أن أتدثّر به في غرفتي في جبيل حلّ محلّه غطاء مختلف أفقدني إحساس الارتماء المطمئن.

كانت المدرسة داخلية أي أن الدرس والنوم والحياة تجري داخل أسوارها... وكانت ممنوعاتها عديدة، ومن أهم الممنوعات: الجرائد والمجلات.

أذكر أبي، وهو يصل لزيارتي أسبوعيًا، وقد انتقل من سرفيس جبيل إلى سرفيس الأشرفيه حتى ساحة الدباس، متأبطًا رزمة جرائد الأسبوع كي لا أنقطع عن قراءة الحدث! كان قد حصل لي لوحدي،

على إذن خاص من الإدارة لقراءة الصحف.

السينما أيضًا كانت من الممنوعات، السينما في الحمرا طبعًا، ولكن سينما "الغومون بالاس" كانت صالة مباركة. فالغومون، التي أصبحت اليوم أطلالًا في قلب بيروت، كانت تعرض - وللمفارقة- الأفلام السوفياتية حيث لا رقصة ولا قبلة، بل كانت أفلامًا تتتالى فيها عظات الواجب والأخلاق وأمثلة حبّ الوطن.

في هذا الداخل المتقشّف، ابتدعتُ نافذة لي، بدأت بالاهتمام بتصميم لوحات مصوّرة تطرح قضايا العالم الأساسية: الجوع، العنف، السكن، البيئة... أو الاحتفاء بمناسبات الأعياد الوطنية ومعانيها. بفضلها ومن خلالها وبتأييد من إدارة المدرسة بتّ أطّلع على المجلات الدوريّة واقتطع منها صورًا وابتدع لوحات وأتحفّز فكرًا.

عندما انتقلت إلى الجامعة اللبنانية لدراسة الأدب والتربية، كانت أختي أسمهان رفيقتي كما كانت في المدرسة الداخلية... وعندما أصبحنا ستة أولاد في جامعات بيروت، اقتنى لنا أبي بيتًا على طريق الشام واختاره في منطقة رأس النبع التي تسمح لكل منا بالوصول السهل إلى جامعته.

تحوّل بيتنا إلى نادٍ للأصحاب والرفاق، يملك بعضهم مفاتيحه... صورة مصغّرة عن بيت جبيل. وكانت أمي تخاف علينا أن نهمل غذاءنا ونكتفي بسندويشات الجامعة فكانت ترسل إلينا كل أسبوع وجبات طعام

متنوّعة مدروسة نضعها في البراد، ويصلها من يصل قبل الآخر... وإذا نفدت قبل نهاية الأسبوع، نعود إلى ما تيسّر من زيتون وزعتر حتى الوجبات المقبلة.

كانت بيروت منتصف الستينيات، وكانت الجامعة اللبنانيّة مصنع أحلام وحلاوة انطلاق، وبيروت سجادة ألوان ترسم لنا المستقبل الزاهر والآفاق الوسيعة.

كانت الأفلام، والمعارض، والمحاضرات، والمجلات الرائدة، والمسارح قوت بيروت اليومي، وتحوّل شارع الحمراء إلى مهرجان شعوب، ومقاهيه إلى منارات ثقافة.

شكّلت "الندوة اللبنانية" محطة أساسية لي في الإصغاء المقدّس لكل محاضراتها، ومساحة معرفة وحداثة وحوار. كنت دومًا أقصدها عند خروجي من الجامعة وقد امتلأت مقاعدها، وأقف مستمعة طوال المحاضرة، متكئة على الجدار وأنا أسجّل، كطالبة مجتهدة، كل أقوال المحاضرين وكل مداخلاتهم فتحوّلت "الندوة اللبنانية" جامعتي الأخرى الموازية.

أذكر المظاهرات الطلابية والندوات الحوارية والنداءات المطلبية، وحماسنا لتحرير كل شعوب الأرض ولمساندة ثوراتها، كما أذكر رفاقًا في هذا النضال، منهم من بقي ومنهم من غدرته الأيام فغاب، وأتوق إلى كل لقاء يستعيد بعيون منداة أيام الشغف والآمال.

تتلمذت في الجامعة على أيدي أساتذة كبار منهم: جبور عبد النور، محمد علي مكي، أسد رستم، صبحي الصالح، أحمد مكي، محمد المصري، فؤاد أفرام البستاني، جبرايل جبور، فيكتور الكك وغيرهم. وكنت ممن أتاح لهم الحظ أن أمثّل الجامعة وأن استقبل وأخاطب باسمها الشاعر سنغور في احتفال كان يتكرر عند مجيء أي شخصية ثقافية عالمية لزيارة لبنان وجامعته.

عندما أنهيت إجازتي في اللغة العربية وفي التربية، كنت لا أزال على عطشي العلمي وعلى نهمي المستفيض قلقًا وفضولًا.

من الأكيد أنني كنت أتوق إلى اختصاصات ومهن أخرى...

كنت أتمنّى مثلًا أن أكون إعلاميّة، يحفّز ذهني ويشعل قلبي لقاء الناس، ومعاركة الواقع، وبهجة الاكتشاف الإنساني المتواصل.

كنت أتمنى أن أكون ممثلة على المسرح لشغفي بمسرحيات شكسبير ويونسكو.

كنت أتمنى أن أكون نحّاتة أحوّل المادة بين يدي بإلفة ومحبة ومقدرة...

كان النهم المعرفي، صفة ذهني، ولم تكن إجازة الآداب إلا محطة أقنعني والدي باعتمادها، كي أكتب أفضل وأوضح.

على كل حال، كنت في البيت وفي المدرسة، أنحت كل ما يقع تحت يدي، من طبشور وصابون وخشب ومعدن، وأتابع دروسًا فنيّة بالمراسلة مع مدرسة فرنسيّة، وأعرض في الأونيسكو حصيلة هذه المحاولات التي توقفت، وللأسف، عندما فاقت ثقافتي الفنية قدراتي وإمكاناتي فكبّلت أصابعي، ولم أجد بقربي من ينهرني: لا تخافي... كوني أنتِ أوّلًا.

تيقّنت من قوة الأقدار والصدف على نسيج حياتنا، يوم وقفت أقرأ نتائج الامتحان النهائي في الجامعة، عندما لفتت نظري ورقة رسمية بسيطة تعلن عن تقديم منحة لدراسة الفن في باريس بعد مباراة قبول. تقدّمت للمباراة، ويا لفرحتي عندما قرأت اسمي بعد أسبوعين وقد فزت بالمباراة والمنحة.

ذهبت عندها إلى أبي أعلمه بأنني سأذهب إلى باريس لتحضير الدكتوراه. دمعت عينا أبي فخرًا وفرحًا، هو الذي كان يردّد: "لقد آليت على نفسي أن أوصلكم جميعًا إلى الإجازة الجامعية قبل أن تدهمني الشيخوخة... وكلكم- البنات والشبّان- سواسية عندي... لكن الدكتوراه... على كل منكم أن يتدبّر طموحه بها، كي لا أقصّر في حق أحد".

ولكن كان على أبي أن يتدبّر عدة أمور... أوّلها بطاقة السفر وثانيها إعانتي ماديًّا لمدة أشهر قبل وصول المنحة، وأصعبها، إقناع العائلة والقرية، بأنَّ باريس ليست بلد الضلال والضياع وأن سفر فتاة عشرينية

لوحدها، من عمشيت إلى باريس، لا يستدعي القلق والهمّ والحسرة.

أذكر أنني يوم حصلت رسميًّا على المنحة كان يتوجّب عليّ توقيع تعهّد بالعودة والتدريس في الجامعة... توقيع يجب أن يتمّ داخل سراي جبيل.

في بداية الستينيات، كانت أقدام الرجال فقط، الرجال المحامين من ناحية والرجال الجانحين من ناحية أخرى هي التي تصعد الدرج الصغير المؤدي إلى باب السراي. هذا الدرج لم يكن يعرف بعد خطى نساء محاميات... ولذا فإن صعود امرأة هذا الدرج إنما هو مدعاة للشك والريبة... أتذكّر أن مجموعة من أقربائي أحاطتني وهي ترافقني على هذا الدرج وتخفي قامتي الصغيرة كي أصعد... وللمفارقة كنت أصعد لتأكيد حقي في الدراسة والسفر والعمل ولم أكن قد اقترفت إلا جنحة العلم.

أما يوم السفر فلا أزال أذكره ويذكره أقربائي كيوم مشهود... ارتحلت كل عمشيت وبعض جبيل إلى بيروت لوداعي بالبكاء والحنين ووصايا الانتباه والعودة.

في طريقنا إلى بيروت جاور كميون كبير السيارة التي أقلّتني مع والدي، وقد كتب على جانب منه وبالأرقام: الوزن الإجمالي، والوزن الصافي. تلفّت أبي نحوي وقال لي: "اذهبي، وصيّتي الوحيدة إليك: إصنعي وزنك الصافي".

كان مطار بيروت يتميّز بشرفة طويلة مطلّة على باحة الطائرات، ولا تزال ترفرف في ذهني حركة أيديهم الملوّحة لي من فوق، حتى إغلاق باب الطائرة.

أتيت باريس وأنا أتصوّرها كبيروت كبيرة، وذهبت لتحضير الدكتوراه وأنا اعتقدها تشبه الإجازة، إنما على أكبر.

لم ألتقِ أحدًا في بيروت كان باستطاعته أن يرشدني إلى معارج الدكتوراه في تاريخ الفنون، وأذكر اليوم الذي نزلت فيه إلى الحي اللاتيني، أنني رأيت رأس برج إيفل، فقلت لنفسي وأنا الآتية من مدينة يحلو فيها المشي... بعد خطوتين... سأصل... ومشيت حتى المساء ولم أصل. وأذكر هنا كم كان غريباً عليّ أن أشتري تراباً لأزرع فيه زهرة ربيع، أنا التي تربّيت قرب خصب الأرض وحقول الليمون والموز الممتدة من بيتنا إلى سور المدينة وحتى موج الشاطئ.

أقمت في المدينة الجامعية في البيت اللبناني الذي كان ينقسم إلى جناحين: جناح للشباب يتّسع لحوالى ستين طالبًا، وجناح للفتيات يتّسع فقط لحوالى دزينة مختارة من الطالبات اللبنانيات.

كان البيت جميلًا، تعبّر هندسته الحديثة عن روحية البيت اللبناني في استقباله الرحب للشمس والضوء، من دون زخرفات فولكلورية إضافية.

كنت ناشطة في رابطة الطلاب، وأذكر مهرجانًا لبنانيًا سعيت لإقامته في البيت الدولي للمدينة الجامعية. لم يكن رأسمالنا فيه إلا

الإقناع. بكرم وأريحية ساعدتنا وزارة السياحة، وساعدنا لبنانيو باريس، وساعدنا حتى الفنان الكبير شفيق عبود، فقدم لنا بأريحية عدة لوحات للمعرض الفني ومنه تعلمت درسًا لا أنساه، عندما علقت لوحاته قرب لوحات مبتدئين، إذ نظر إليّ بتسامح وقال: "يا ابنتي، انتبهي دومًا في حياتك إلى مَن يجاور مَن".

كانت باريس النار الإلهيّة التي صهرتني وعلمتني وصنعتني. أعطيت نفسي بصدق إلى هذه المدينة، ولم يكن العلم وحده غذائي، مع أنني تتلمذت على يد أفضل أساتذة السوربون، وكلّيات الفنون والآثار، وكنت أختار كل سنة محاضرات أتابعها في الكوليج دو فرانس لمفكّرين كبار مكرّسين على غرار ليفي شتراوس ورولان بارت الذي أدين له خاصّة بالتأثير الكبير على كل تحوّلاتي الفكرية.

كانت مرحلة الستينيات في باريس...

وكانت مرحلة سارتر وسيمون دو بوفوار اللذين كنا نرتقبهما في مقاهي السان جرمان، كانت أغاني بربارة، وهيلين مارتان، وجورج براسينس، وكانت مادلين رونو المتألّقة في مسرحيّة "آه أيتها الأيام السعيدة" لبيكيت على مسرح الأوديون، وكانت مسرحيات أوجين يونسكو من "الملك يحتضر" إلى "المغنّية الصلعاء" التي غزا الشيب شعر ممثّليها وهم يستعيدونها لعشرات السنين دون توقّف أو كلل، كانت محاضرات كلود ليفي شتراوس في اكتشافاته الأنتروبولوجية وكانت

محاضرات رولان بارت ولقاءاتي معه، والتي طبعتني بمنهج تفكير لا يزال راسخًا في ذهني، سواء كتبت في التاريخ أم الفن أم التربية أم المرأة.

كانت باريس أيضًا سنة أحداث 1968 التي دغدغت أحلامنا الثوريّة، ودرّبت أقدامنا وحناجرنا على المظاهرات، وعقلنا على حسّ المسؤولية الوطنية في مجتمعاتنا.

وعندما عدت إلى بيروت بحجر مكعّب التقطته من شوارع باريس الهائجة، احتفظت به، أسند به كتبي وأوراق مكتبتي إلى اليوم، وأغلفه بلمس الحنين.

عشت أيضًا في باريس وقع حرب 1967 على أوطاننا ومعنى الهزيمة وأهميّة التخطيط والمسؤولية لبناء مجتمعاتنا المقبلة.

كنت كأبناء جيلي الذي حمل هموم التبديل والتحديث والتنمية والحرية، واختبر التقاطع الخصب بين الغرب والشرق، وعندما عاد كل منّا كان حالمًا بالأفق الوسيع الذي تخطّت فيه آمالنا واقعًا يستولد الأزمات ويستبطن حروبًا مقبلة.

أحببت السفر كثيرًا، وفي غرفتي في المدينة الجامعية علّقت على الجدار خريطة كبرى للعالم، وعاهدت نفسي على اجتياز آفاقها، فكنت أمسك قلمًا بعد كل سفر، أخطّ به على الخريطة، الطرقات التي سلكت، وأعِدُ نفسي بارتياد العالم.

كان السفر في تلك المرحلة سهلًا وبتكلفة زهيدة. وكنت أقصد ما لا يقصده السياح عادة، ولا تصوّره بطاقات البريد التقليدية. كنت أقصد موقعًا لقلبي، أصوغ منه أنا صورة وذكرى فريدة لأي بلد زرته واكتشفته وأحببته.

نعم لا يمكن أن يكون شغفي بالعالم والمدن والموسيقى والفنون والطبيعة، منفصلا عن حبي وعشقي لأناس التقيتهم منذ مراهقتي وأمسك قلبهم بقلبي، فعرفت معهم الشوق والفرح واللهو والأسى والفراق.

كانت مرحلة الستينيات وكانت باريس المدينة المثلى- في الواقع وفي المخيّلة- للقاءات الحب المنزّه... إلا عن الحب... مدينة تشاركك في حبك وتورّطك في حبها.

اليوم وفي أويقات وحشة العمر، استعيد ذكريات ولو غابت عنها التفاصيل، ورغبات ولو غابت أشواقها، ووجوهًا ولو نسيت أسماءها، أو حبًا لم أفطن أحيانًا إلى وجوده أو حرقة فراق فقدت لذعتها.. أنا ممتنّة لجميل هذه العلاقات العميقة العذوبة التي درّبت مشاعري وجوهرت رغباتي وجعلتني أكثر رقّة حيال أي عاطفة وأكثر متانة حيال أي خسران.

سافرت كثيرًا بعد ذلك، حتى كمبوديا، وتوقفت أمام حضارتها وأنا أعتب على نفسي. فنحن أهل المتوسط، نحسب أن هذه البحيرة الجميلة، يبتدئ بها العالم وبها ينتهي. من الأكيد أننا في أساس حضارات العالم،

ولكن شعوب آسيا تمتلك في أصقاعها البعيدة إنجازات ورؤى وحضارة وفنوناً مختلفة أغنت الإنسانية بمفاهيم وقِيَم تغيب غالباً عن أذهاننا.

وعندما زرت معبدًا هندوسيًا في حقل آثارها ولمست أحجاره التراثية، غمرني شعور بالرهبة والإيمان والتقوى وكأنني أتقن طقوسه وأصلّي فيه وأنعم بكل نِعَم الأديان والحضارات وأنتمي إليها كلها في لحظة عجائبية واحدة!

4

تمرّد على النمطية وزواج غير تقليدي

عند عودتي من باريس، كنت قد أصبحت في محيط بلدتي مثالًا يحتذى لكل فتاة تطمح إلى إكمال تعليمها واختراق جدار التقاليد، وكانت بيروت مدينة كوزموبوليتية تحتفي بالمختلف والغريب والمبدع. وعندما رميت نفسي في خضمّ موجها نعمت بغنيمة الغوص وسعادة المدى.

عند عودتي، احتفى بي الجميع، من أقرباء إلى مثقفين إلى صحف إلى منابر، وكنت قد استوعبت معنى التقاء الحضارات وتلاقحها الخصب، ومعنى النعمة التي أعطيت لي أن أعيش باريس الستينيات بما يعني ذلك من التوق والدهشة والحيرة والغبطة دون كلل، وبذهن كالإسفنجة يتشبّع دون شبع.

كنت من المحظوظات اللواتي نعمن بجو عائلي مشجّع ومنفتح، ولكن بعد عودتي، أردت أن أكون صوت كل امرأة ليس بإمكانها رفع الصوت أو تأكيد الحضور أو المطالبة بحقّ. حاضرت وكتبت وعملت في جمعيات نسائية عديدة وكان حماسي يسابق نفسي ويقودني إلى التعبير والكلام بسرعة استثنائية.

وأذكر أن والدي كان يجلس في أغلب محاضراتي في المقاعد الخلفية، كي يحرّك يده أفقيًا أمام ناظري ويقول: "على مهل، على مهل...".

على مهل... نصيحة لم استطع أن أتبعها دومًا، لا في حياتي ولا في كلامي... ولا أعرف، ما إذا كان العمر الآن قد درّبني على أن أكلمكم "على مهل على مهل" كما كان يوصيني أبي هو الذي كان سريع الكلام مثلي...

كنت دائمة الحركة.. أودّ احتضان العالم في كل وقت... قمت بالعديد من الأعمال: عملت في الإذاعة، في التلفزيون، في تصميم المجلات.. وكانت مشكلتي في صعوبة الاختيار، وجاذبية الفضول.

ولكن كان التعليم عملي الأساسي الذي كرّست له حياتي والذي شغفت به كثيرًا. هذا التعليم الذي منحني معرفة، ودراية وتذوّقًا لغنى التنوّع، في مجتمعات مختلفة لكنه استنفدني شفهيًا وألهاني عن تسجيل الكثير.

درّست في ثانوية الجُدَيْدِة الرسمية في ضواحي بيروت، وفي مدرسة الحكمة في الحدث حيث كنت مديرة للدروس العربية وفي مدرسة طاميش للرهبنة المارونية، ولكن الجامعة كانت الموقع الأساسي. لقد درّست في الجامعة اليسوعية، في البلمند، في الجامعة العربية، وفي كليّة بيروت الجامعية، ورست مراكبي في الجامعة اللبنانية، حيث أناهز الآن حوالى ثلاثين سنة من التدريس.

تعلّمت كثيرًا من مهنة التعليم، وتعلّمت خاصة كيف نكوّن أذهانًا حرّة مبدعة وكيف ندرّس دون تلقين.

ومما أذكره عن تعلّقي بمدرسة الحكمة، إحساسي بالحرية التربوية التي سمحت لي أن أدرّس التلاميذ في ظلال أشجار الزيتون والصنوبر المحيطة بالمدرسة، كما أن أخصّص ساعة مدرسية أسميتها "قراءة جريدة" أتاحت للتلاميذ معرفة الواقع الاجتماعي والسياسي معززة حسّهم الوطني النقدي، كما أتاحت لهم خاصة إحساس القربى باللغة العربية السهلة اليوميّة التي خفّفت من ثقل لغة الكتاب المدرسي التقليدي.

في هذه المدرسة أتيح لي، بترحيب كبير من الإدارة، صياغة برنامج أسميته: "التعليم الديني في مجتمع متعدّد الأديان" يعطى للتلاميذ من كل الانتماءات والأديان، متيحًا لهم فرصة معرفة الآخر المختلف كغنى فكري وروحي ووطني وممهّدًا في نفوسهم الشابة إلى فسحة الحوار الإنساني الخصب. ولكن بشائر الحرب التي كانت تلوح، لم توقفه فقط، بل عطّلت كل التدريس وخرّبت المشاريع والحياة.

كان عملي في الجمعيات الأهليّة يلتهم بلذّة ما يتبقى لي من وقت... من جمعيات نسائية إلى جمعيات ثقافية إلى نوادٍ اجتماعية، إلى دورات تدريبية وتثقيفية في القرى، إلى مؤتمرات دولية، إلى عمل دؤوب لعشرات السنين في جمعية تنظيم الأسرة، حيث توليت بعد ذلك رئاستها.

كانت هذه الجمعية الموقع الذي تعلمت منه كل أحوال النساء، من خلال القضية الأكثر التصاقًا بوجودهن: الصحة، صحة الجسد وصحة النفس، وأحوالهن في الأمومة والزواج... هذه العلاقة بالواقع المكتوم للنساء، وأحيانًا المأساوي، درّبتني على ألا أكتب دراسة وبحثًا إلا إذا ارتبط بالواقع وبأفق محاولات التبديل والتطوير.

في هذه المرحلة، أصدرت كتابًا اعتبره بداية لما سمّي الآن في نهاية القرن العشرين، الجندر أو النوع الاجتماعي.

كنت مديرة للدروس العربية في الحكمة، وكانت كتب دور النشر تتدفق عليّ لاختيار ما يناسب المدرسة...

وكنت كلما طالعت هذه الكتب، طالعني النموذج النمطيّ للنساء في النصوص وفي الصور، الذي جعل ابنتي بعد ذلك في المدرسة تكتب في موضوع الإنشاء عن وصف الأم ما هو مطلوب ومكرّس: "أمي تطبخ لنا يوميًا الأطباق الشهية وتستقبل الجيران وتنسج الصوف"، وأنا لم تكن تسمح لي إمكاناتي ولا وقتي ولا عملي، باقتراف هذه الصورة النمطية التي درستها ابنتي في كتاب القراءة العربية.

كانت الصورة النمطيّة للأم تحتلّ هذه الكتب وتبعدها عن صورة الواقع الذي بدأ يتكوّن مع أمهات عاملات ومع أمهات المدن، ومع الصورة الجديدة للأم المعاصرة.

جمعت كل هذه الأمثلة في بطاقات تعدّت 750 نموذجًا وحلّلتها ونسّقتها وأصدرتها في كتاب أطلقت عليه العنوان التالي: "هي تطبخ، هو يقرأ. صورة المرأة في الكتب المدرسية في لبنان".

كان هذا الكتاب رائدًا في مجال الخطاب النسائي مما رشّحني لعرضه في مؤتمرات دولية وللمشاركة في إصدار الكتب الجديدة للمركز التربوي الوطني، كنت فيها المراقبة الحارسة للصورة الجديدة والواقعية للنساء... حين لم يعد الرجل فقط، الجندي والمدير والرئيس والشجاع والعامل، ولم تعد النساء فقط وبالتوازي الممرضة، والسكرتيرة، والخادمة والحنونة والباكية.

بعد تبدّل المناهج، عدت إلى المشاركة في إصدار الكتب التربوية، ولكن من خلال إدخال الصورة الجيّدة المتوافقة والمرافقة للنص، كعنصر تربوي نابض، متفاعل مع النص المكتوب. وكي يتكوّن من لقائهما- لقاء الصورة بالنص- نص ثالث في ذهن التلميذ. كنت أختار الصور من خلال هدفين: الهدف التربوي والهدف الجمالي. فالصورة ليست تكرارًا بصريًا للنص، بل هي تكوين أجنحة جديدة له وتحفيز إبداعي للتلميذ. والصورة أيضًا تعريف ضمني بالفنون اللبنانية والعالميّة على مدى تتالي نصوص الكتاب.

كان اختيار صورة مثلا، يسكن ذهني أسبوعًا قبل اعتمادي إياها. كان عملا رائعًا وكنت أقول لنفسي: "إذا ما نشأ التلميذ على رؤية

الجمال وتذوّق الإبداع الفني، فهو لن يقبل أن تكون شوارع مدينته بشعة وصورها مبتذلة وتماثيلها بدائية".

كان لإيقاع بيروت، صدى التماعات كثيرة في نفسي، مما جعلني أكتب، وأحاضر، وأخبر، وأناقش، باندفاع مثالي وبحميّة من يعتقد أنه ليس من مستحيل.

كتبت في قضايا المرأة اللبنانية والعربية، وحلّلت أهداف ومستقبل الجمعيات النسائية. أقمت شهرًا في الهرمل كي أكتب عن نساء الهرمل. كتبت عن العنف الاجتماعي ضدّ النساء، عن تطوّر تعليمهن، عن معنى العمل، عن صحة النساء، عن معنى الحرّية الاجتماعية والجنسية والاقتصادية.

كنا نساء قليلات نتجرّأ ونناضل ونكتب، فكانت وسائل الإعلام تتسابق لأحاديثنا وتعليقاتنا.

في هذا الوقت، اجتذبني النبض الإعلامي، وخاصة في التلفزيون اللبناني الناشئ، فتدرّبت في فريق ليلى رستم، سيدة الإعلام في ذاك الوقت، وعملت مع سمير نصري ومنير شمعون في برنامج تربوي، ومع جان خوري في برنامج اجتماعي، ومع وليد شميط عن صورة المرأة في السينما العربية، ومع عباس مكي في برنامج اجتماعي- تربوي.

كان النهار لا يتّسع لأعمالنا ولا الليل لأحلامنا. وبيروت تلوّح لنا بألف إغراء ومدى!

عندما بدأت الكتابة في مجال التاريخ، حاولت أن أظهر أن التاريخ ليس دومًا من صنع الأقوياء والأغنياء والأحداث الكبيرة؛ حاولت التأكيد على أن التاريخ إنما تصنعه الحياة اليومية التي تنساب بعاداتها وتقاليدها وثيابها وطعامها وأثاثها، فتؤثر وتحوّر كانسياب الماء البطيء تحت أبواب سلطات التاريخ العسكرية والسياسية، وتصنع التاريخ الثقافي والحقيقي للناس.

انصرفت إلى ملاحقة تاريخ الأشياء اليومية، التي بقدر ما اعتدنا مجاورتها واستخدامها، فقدنا القدرة على تقدير فرادتها وأهميتها، تمامًا كالناس العاديين الذين يجاوروننا.

كتبت "تاريخ الأشياء اليومية" التي يستطيع امتلاكها كل إنسان، كتاريخ الساعة من خلال هاجس تسجيل الزمن والسيطرة عليه، وتاريخ الخبز من خلال المشاركة الإنسانية في الغذاء الواحد، وتاريخ المفتاح من خلال تاريخ الملكية والحذر، وتاريخ النظارات من خلال سعي الإنسان للرؤية الأفضل، وتاريخ فنجان القهوة في تحوّل زراعة البن إلى ثقافة القهوة، وتاريخ الكرافات زينة الرجال الوحيدة، وتاريخ القلم وسيلة التعبير الإنساني، وتاريخ الماء التي صنعت تاريخ البشرية من خلال تبدّلاتها وما يموج في قعر التاريخ من تبدّل اقتصادي وسياسي وتقني وحضاري وفني.

اعترف الآن، بعد كتابة هذه الرؤية للتاريخ، أن علاقتي بما يحيط بي من أشياء يومية في وجودها المتميّز وفي علاقتها ببعضها البعض

وفي علاقتها بالإنسان، أصبحت بالغة الثراء الفكري، والاكتناز الروحي. كأنني اجتزت ما يجتازه المتصوّفون عند وصولهم إلى نقطة وعي لا تتحقق دون هذه الرحلة الداخلية.

بدأت التدريس في الجامعة... عندما حلت الحرب... لم نصدّق أنها الحرب... وأن روّاد شارع الحمراء سيتفرّقون قسرًا وخوفًا... ولم نصدّق أنها ستطول... وابتدأ وجه أبي يدلهِّم... هو الذي ربّى أولاده، وبصوت عالٍ جريء، على رفض الطائفية، وفضح المتعصبين، واعتبار الناس أخوة في الإنسانية... أطلقت الحرب النار على كل مُثله وأقواله، فاعتكف مكسور الخاطر... يعرف ما يجري ولا يقبل بما تجري به الأحداث...

كان يخاف علينا، على حياتنا، وعلى المُثل التي لقننا إياها، وعلى انهيار العالم الذي حلم به ودعا إليه.

حلّت الحرب... ولكن كنت أنا، ربيبة هذا البيت وهذه السنوات المضيئة وانطلاق باريس وحريّة بيروت وجرأة أبي، قد تعرفتُ إلى د. هشام البساط، شاب لبناني حاز على الدكتوراه في الاقتصاد وإدارة المصارف من جامعة ليون وتشبّع من رحابة فرنسا وثقافتها وتطبّع بقوانينها وإنسانيتها... وعندما قررنا الزواج، نبهنا واقع الحرب القاسي، إلى أنني من دين وأنه من دين آخر.

ونبّهنا أيضاً الواقع القانوني في لبنان، أن من يسير عكس السير الطائفي، لا ملاذ له. فإما أن يلتحق أحدنا بدين الآخر، وغالبًا ما تقع التضحية على النساء في مجتمع الذكور، وإما أن نذهب إلى قبرص، نلتقي على أرض محايدة، تحترم اختلافنا، لنوقّع عقد زواجنا، الذي يُسجّل قانونيًا في الأحوال الشخصية في لبنان، إذا ما أقيم على أرض أجنبية. وأقرب أرض أجنبية علمانية القوانين هي قبرص.

أذكر بمودّة كبيرة المونسينيور فوروداريس، مطران موارنة قبرص، الذي وقف شاهدًا على زواجنا في المحكمة، واحتفى بنا في ديره كما في قرى قبرص الصغيرة هو الذي اعتاد، برحابة، على استقبال اللبنانيين ومساعدتهم.

كان خبر زواجنا في بداية الحرب الأهلية الطائفية، يشابه وقع الصاعقة على مجتمعنا. فالحكمة الواقعية تقضي بأن يلتجئ كل إنسان ليحتمي "بجماعته" كما يقال. ونحن بمن سنحتمي؟

انتشرت الحواجز على الهوية، وكنا نحمل هويتين مختلفتين في الانتماء الديني، وكان كل حاجز تهديدًا لأحد منا لا محالة.

كان زواجنا محطّة أساسية بالنسبة لعائلة زوجي خاصة، حيث لحقت بنا أعداد من الأجيال الشابة، اقتفت أثر تجربتنا، وأقدمت على زيجات مختلطة متنوّعة، والحرب الطائفية لا تزال في ربوعنا، وكأننا كنا أول من فتح بابًا تقف أمامه قافلة من الشباب تنتظر المغامر الأول.

اليوم ناهزت حياتي الزوجية على أكثر من ثلاثين سنة، وقد أغنتني هذه التجربة وأغنت محيطي العائلي والمهني، بمفاهيم الحوار والتسامح والرحابة. لقد عشنا حياة خصبة جميلة، غاب عن أذهاننا فيها أن كلا منا ينتمي إلى دين مختلف. هذه الفروق كنت أتذكّرها وأذكرها، في مراحل الأزمات الطائفية، عندما أطلّ في وسائل الإعلام، لأذكّر الناس بأننا نستطيع أن نعيش اختلافنا مع الآخر بحب وإلفة وقبول وحريّة، دون أن نختلف معه.

تدرّج هشام البساط في وظيفته المصرفيّة بمثابرة ورصانة، من مدير لقسم التخطيط والدراسات إلى مدير محلي وإقليمي للبنك العربي المحدود المطلّ على ساحة رياض الصلح. وبقي كما هو الهادئ الصادق الحازم النقي الأنوف مثالا "مكرّسًا" للنزاهة والأخلاق والضمير، وحائزًا على محبة وتقدير كل من عرفه.

كان هشام نبيلا جميلا أنيقًا، يزيّن هامته ضمير ثاقب ونقاء أخلاقي ومعرفة متينة وحس إنساني محبّ، ولم يمنعه تفانيه في مهنته المصرفية عن متابعة الحياة الثقافية والإبداعية في لبنان حيث كان مرافقًا ومشجعًا وداعمًا للعديد من المعارض والمسرحيات والمنشورات والمشاريع الإبداعية.

رزقنا بولدين رنا وجاد، وكانت تربيتنا لهما الاختبار الأساسي لنقاء نفوسنا من أي تعصّب ومن أي امتلاك. من الأكيد أنهما تشبّعا من قيم دينيّة يحملها كل منا، ولذا اتسع قلباهما لكل توق روحي ولكل

الأديان سواسية.

كانت سنوات الحرب قاسية على كل لبناني، وكان القلق يتراكم فوق القلق والخوف فوق الخوف. كان صعبًا أن تكون لا طائفيًّا في مجتمع مطيّف حتى العنف. وكم قضينا أشهرًا في احتماء داخل البيوت أو في تنقل دائم وسفر، ونحن نحمل أولادنا كأفراخ صغيرة نكاد نعتذر لهم عن هذه الهوية المنفتحة المتنوعة، وعن هذه التربية الإنسانيّة التي أعطيت لهم.

كانت الحرب تطيح بالنفوس، وتشقع ركام الموت والخراب والعصبية، وكنا كمن يفتش عن واحة لم تتلوث وأرض لم يلطخها الدم.

لقد عشنا ما الذي تعنيه حروب الأهل في هذا الوطن الصغير المتمازج أهلًا. وعندما لملمنا أشلاء وجودنا، كان الأولاد يكبرون وقد أفرطنا في حمايتهم في تربية تكاد أن تجعلهم غرباء عن أمراض محيطهم وأهوائه.

كبر الأولاد الآن... ولبنان تهدّده من جديد رياح قاتمة، حملت ابني جاد الذي تخرّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت في مجال هندسة الكومبيوتر والاتصالات على إكمال اختصاصه في الولايات المتحدة وانتمائه الوظيفي إلى الشركة العملاقة مايكروسوفت، كما حملته حرب تموز الماضية إلى الهجرة الطويلة والزواج من رفيقته الأميركية وهو يحمل في قلبه بين الحنين والقلق "حبّ وطنه لبنان"، وتحوّلت أنا إلى

جدّة افتراضية لحفيدين أميركيين من أصل لبناني هما سِنان وثريا اللذين حملا اسمًا شرقيًا ربما لاستمراريّة ذكرى الوطن الجميل.

ابنتي رنا، التي درست الفنون التشكيلية في كلية بيروت الجامعية لا تزال هنا، معنا، عاشقة لهواء الوطن وترابه... وأنا أسأل نفسي أن يدوم هذا التعلّق على الرغم من كل شيء... قبل أن يصبح لبنان وطن العجائز، يروون ذكرياتهم ويكررون حنينهم... ومن أرحام الأمهات، تطير فراخ عصافير إلى أفق بعيد مجهول... وقد لا تعود...

5

مركز علوم الإنسان... ومأساة الغياب

منذ طفولتي وأنا أسمع الناس يطلقون على بيتنا في جبيل اسم الأونيسكو.

كنت أتصوّر أننا اكتسبنا هذا الاسم بفضل مكتبة البيت الكبيرة، والتي كان أبي يتوق إلى تحويلها مكتبة عامة، ولكن هذا الاسم أصبح كنيتنا بسبب القصة الطريفة التالية:

كانت مكاتب وزارة التربية تقع في مبنى الأونسكو في بيروت، ودرجت العادة أن تقصد الناس هذا العنوان للاطلاع على توقيت الامتحانات الرسمية. ونتيجة لعدد الأولاد الكبير في عائلتنا ولأعمارنا المتدرّجة المتتالية، كان هناك دومًا من يتقدّم لامتحان السرتيفيكا أو البريفيه أو البكالوريا أو الجامعة، فكان أبي يقتطع من الجريدة إعلان توقيت الامتحانات- والتي كانت وسيلة الإعلام الوحيدة- ويلصقه على رتاج الباب الخارجي. وكانت الناس، للتأكد من مواعيد امتحانات أولادها، تقول: "ما تنزلوا عا أونيسكو بيروت، تعوا هون عا بيت الأونيسكو".

شكّلت هذه التسمية مصدر فخر لنا، خاصة أننا كنا نتباهى في جبيل، بأن الأونيسكو، وهي حامية الثقافة في العالم، حمت موقع جبيل الأثري بتصنيفه على لائحة التراث العالمي.

بعد مدّة، أسست الأونيسكو في جبيل، مركزًا دوليًا رائدًا لعلوم الإنسان، تعزيزًا لرسالة جبيل، منذ أبجديّتها الأولى حتى استدعاء إسهامها الحاضر في تجذير الثقافة الإنسانية.

يعود الفضل في التحفيز لإنشاء هذا المعهد إلى الرائد التنموي موريس الجميّل، وإلى المثقف المرهف مانويل يونس، رحمهما الله.

نصّت قوانين هذا المعهد على إدارته من قبل مدير أجنبي تعيّنه الأونيسكو بموافقة الدولة اللبنانية، وعلى مدير لبناني مساعد، تعيّنه الدولة اللبنانية بموافقة الأونيسكو.

وكان من حظي سنة 2000 أن أعود إلى جبيل وقد عيّنت كمديرة لبنانية لهذا المركز لمدة خمس سنوات.

رجعت إلى دروب بيتنا القديم، أذهب إلى عملي سيرًا على الأقدام، حيث أعرف مواقع ظلال الشجر وظلال السور القديم الذي تفيّأت ظله منذ صغري في عزّ حدّة شمس جبيل الصيفية.

عدت إلى مكتب يقع في بيت قرميدي تراثي بني على سور جبيل ومن أحجاره. كانت حديقته ملعبًا لطفولتنا وكم حُذّرنا في هذه الحديقة

من الأفاعي التي تختال في شهري حزيران وتموز، والتي دامت أجيابها حتى سنة 2000، فكانت إذا لم نكافحها، تطلّ برأسها وتفاجئنا على قناطر المكتب وجدرانه.

وكما تطلّ الأونيسكو على كل الحضارات والأديان بشمولية واحترام واحتضان، كان هذا المكتب يطلّ على كنيسة مار يوحنا الصليبية وعلى جامع جبيل الأثري، وعلى معابد الآلهة الفينيقية واليونانية–الرومانية...

لكن هذا المركز، الذي ابتدأ برصد الطاقات الفكرية في لبنان والعالم العربي، ومحاولات التبادل الفكري بين جامعاته، لم يقدّر لنشاطه التتابع الطبيعي. إذ أثر التبدّل المتتالي في إدارته الأجنبية على إطلاق أبحاثه. كما أن مراكز الأبحاث تحتاج إلى سنوات طويلة لتكوين هويتها ونتاجها وتاريخها.

كان مركز جبيل لا يزال في أولى سنوات نشاطه، فأصدرنا كتبًا ومنشورات عديدة، كانت حصيلة أبحاثه عن حوار الأديان، العنف والدين، والديمقراطية وحقوق الإنسان، وأقمنا العديد من المؤتمرات وحلقات التدريب، ولكني تيقّنت بعد هذه التجربة مِن أننا في مجتمعاتنا النامية لا نستطيع أن نجعل من مركز علمي مصنع أبحاث دوليّة، دون أن يكون موقع إشعاع علمي وإنساني في محيطه، ودون أن يكون لبعض أبحاثه مسارب عملية لتنمية هذه المجتمعات وتطويرها.

ولذا دعوت في هذا المركز دومًا إلى:

تقديم مساحة تنموية وفكرية لأهل جبيل، وخاصة لشبابها، من خلال تنوّع العلوم الإنسانيّة وحداثة تقنيّات مقاربتها، فكريًّا وعمليًّا. توجيه نصف عدد الأبحاث تقريبًا نحو لبنان ومحيطه، والمواضيع في هذا المجال لا ينضب نبعها. الاعتماد على الدراسات المقارنة، سواء في مقارنة مشكلة واحدة في مجتمعات مختلفة أو في مقاربة لقضيّة واحدة، من خلال المداخل المتنوّعة للعلوم الإنسانية. اعتماد المركز كموقع علمي مرجعي لإطلاق تجمعات بحثية دولية في كل قطاعات العلوم الإنسانيّة، من التاريخ إلى الآثار إلى الأدب إلى الديمغرافيا إلى علم الاجتماع، إلى علم الأنسنة إلى الفن وحتى إلى السينما.

قصدت بهذا، أن ينشئ المركز هذه التجمعات، تحت إشرافه، تمويلا وإدارة، وأن يطلقها ويحصد نتائجها وينشرها من خلال الباحثين في الجامعات المحلية والدولية.

وعندما أنهيت اتفاقيتي مع المركز بعد خمس سنوات، عدت إلى شغفي الأساسي، إلى التجربة الأساسيّة في حياتي العمليّة، إلى التعليم الجامعي الذي كنت قد أمضيت فيه أكثر من ثلاثين عامًا.

ثلاثون عامًا... ولا يزال العديد من تلاميذي، وقد أصبحوا الآن أرباب عمل، يذكرون العلاقة العلميّة والعلاقة الإنسانية التي نسجتها

معهم... وكثيرًا ما لمحت تأثير هذا التعليم في طريقة تدريس طلاب لي، أصبحوا زملائي في الجامعة.

كان منبر الأستاذ بالنسبة لي، موقع الحرية الوحيد في هذا العالم، وكان التعليم الذي يحفّز فكري وعطائي، يحوّل جسدي إلى أخفّ من الغمام، ويمحو عني أعباء أيّ تعب أو مرض، عندما أقف على منبره.

درّست في الجامعة، تاريخ الهندسة المعمارية، والفنون، والآداب، والأديان والحضارات والآثار، على مدى كل عصور الإنسانيّة. وكان يقال لي إنني اخترت هذا الاختصاص، نتيجة اكتناز عيني من أحجار جبيل العتيقة وتشبّع ذهني من تاريخها المتراكم العريق.

هذا التاريخ، أودّ أن أذكّر به من خلال مرحلة تاريخيّة مجهولة، قادتني الصدفة الجميلة إلى الاحتفاء بها.

ذات مساء، في مطعم بحري مع صديقة إيطالية –باولا مورتاري– الأستاذة في جامعة جنوى، كنّا نتذوّق جبيل ونتأمل ارتطام الموج الصغير بالميناء الأثري، وأتباهى كعادتي بكل المراكب التي اغتسلت بمائها، فاجأتني بالقول:

نحن أيضًا أتيناكم من جنوى، وحكمنا جبيل في القرون الوسطى حوالى مئتي سنة (1109-1291)، مع عائلة الأمبرياتشي التي حُفظ

تاريخها في أرشيفها الكبير ولا يزال يدرّس بآثاره وتأثيره في جامعة جنوى حتى اليوم.

التمع عندها في ذهننا عنوان مؤتمر "من جنوى إلى جبيل: عائلة الأمبرياتشي".

ومن سحر حلم صغير، انطلقنا فجمعنا المال والمناصرين والباحثين، وعقدنا مؤتمرًا هامًا وناجحًا نشرت وقائعه كل وسائل الإعلام، وجمع إلى أساتذة الجامعة اللبنانية، أساتذة جامعة جنوى في تبادل خصب في التأريخ والتحليل. ويحلو لي أن استعيد بفرح ذكرى حفل الافتتاح الذي أقيم بحضور ومشاركة وزير الثقافة اللبناني يوسف بيضون وسفير إيطاليا في لبنان الجنوي المولد والانتماء والذي فاجأنا باصطحابه أحد أحفاد عائلة الامبرياتشي لحضور تكريم أجداده في جبيل بذهول وامتنان.

أقيم هذا المؤتمر في بيت الرعية المجاور للكاتدرائية التي بنيت خلال حكم الامبرياتشي، ولما دعتنا جامعة جنوى لاستعادة هذا المؤتمر، احتفلت به في دير قديم من القرون الوسطى وفي مواقع تماثيلهم التذكارية وقصور العائلة التي لا تزال تتبادل التجارة مع الشرق وفي المتوسط حتى الآن.

لقد كثّر القدر من أفراحي وقلّل من أحزاني... ولكن للحياة محطاتها المؤلمة... لذا كنت أقول لأولادي: ما أتمناه لكم، قبل السعادة، هو الشجاعة والمقدرة على مواجهة صعوبات الحياة...

كانت أختي أسمهان، الجميلة الأنيقة والفائقة الذكاء، أختي ورفيقتي وشبيهتي، وكثيرًا ما تبادلنا، ليس فقط الثياب، بل حضور الصفوف في الجامعة دون أن يفطن أستاذ أو مدير.

برفقة أسمهان- التي سميت تيمنًا بالمطربة أسمهان- عشت أحلى أيام في بيروت، سواء في المدرسة الداخلية أو في الجامعة، حيث كان وقع خطوها يستنفر الإعجاب والحبور والحمية.

درست أسمهان التاريخ والتربية والجغرافيا، وبرعت في رسم الخرائط، وفي استدعاء جمالات الحياة.

وذات يوم، أحسّت بثقل في رجليها وببرودة في أصابعها، قاومتهما بلباقة دون أن تجعل أيًا منا يحسّ بمعاناتها، إلى أن تغلّب عليها مرض نادر يسمّى سكليرودرمي هو مرض جمود الأطراف وشيخوختها، المرض المضاد لحيويتها ومرحها.

كانت أسمهان أكثرنا حماسة وصحّة وعافية. اختارها هذا المرض بالصدفة، وهو داء حتى الآن لم يعرف سبب الإصابة به ولا أي دواء لردعه.

كانت أطرافها تتجمّد يومًا بعد يوم، بينما بقي ذكاؤها مزغردًا وبقيت حيويتها الداخلية مثار إعجاب. كان زوارها يقصدونها كي ترفع من معنوياتهم وتخفّف من مشاكلهم هي التي كانت تُنقل محمولة من سريرها إلى كرسيّها المتحرّك.

أذكر دومًا وجهها المتحفّز على الرغم من زحف المرض إلى تعابيره، وإرادتها العجائبية في تحمّل المرض دون آهٍ أو تأفف... كانت تملك قوة في نفسها، تغرفها من داخلها، ومن إرادة الحياة في درجاتها القصوى، ومن المواجهة الشجاعة دون أي شيء آخر.

أحدث فقدانها المأساوي هزّة كبيرة داخل عائلتنا... كأنها ورثت من أسمهان سميّتها الألق والمأساة، وأورثتنا الأسى العميق.

كان موتها بالنسبة لأولادي الذين أحبّوها كثيرًا، أول تعرّف قاسٍ إلى حرقة موت الأحبّة، أول دخول إلى الفجوة الكبيرة التي يحفرها في النفس غياب عزيز.

شكّل هذا الغياب صدمة كبيرة لي وهي شبيهتي، فكأن قسمًا مني قد غاب واختفى في العتمة...

عندما غابت، أصابتني حميّة العيش عني وعنها، كنت أعمل وأكتب وأدرّس وأسافر وكأنني تحوّلت إلى شخصين متوازيين. كنت حتى عندما أمشي وأرقص وأسبح، أقول لنفسي: أنا أمشي وأرقص وأسبح

عنها، ثأرًا لجمود معذّب تحكّم بأطرافها وبجسمها النابض. اعتقد... أنها كانت طريقتي في محاولة الشفاء من موتها الظالم في أوج شبابها وعطائها.

ساعدني هذا التمويه النفسي على تقبّل غيابها... ولكن قلبي يغدر بي دومًا، وتسبقني الغصّة ويغسلني الدمع، اليوم، وبعد مرور حوالى عقدين على غيابها، حزنًا على التماع نجمة، قصفها القدر غدرًا.

6

تحدّي الحرب ومسؤولية الأمومة

كانت الحرب الأهلية لا تزال على اتّقادها، وكنت أنتقل مع أولادي من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. ونحن ندرك أننا لا ننتمي إلى أحد، ولن يردّ أحد الظلم عنّا. فنحن أهل الزيجات المختلطة، والتي يكون فيها عمّ الولد من طائفة وخاله من طائفة أخرى، نخاف على الجميع، ولا نُحسب على أحد في زمن العصبيات والغرائز، لا بل نعاني من حياديّتنا وعقلانيّتنا ووطنيّتنا وهويّاتنا المتعدّدة... القاتلة، حسب أمين معلوف.

حاولت أن أجنّب أولادنا كل عصبيّة، وكنت عندما انتقل معهم بين حاجز وآخر، ينتابني ذعر عميق... على من سيُحسبون، والشوارع في هيجان، والغرائز في تأجّج.

تنقّل أولادي، كأولاد كل اللبنانيين، بين مناطق وبلدان ومدارس، قاسوا جور الحرب، ولو أننا تماسكنا أمامهم. سألوا واستفهموا وعجبوا حيال هوس القتال الأخوي، وخطر المرور القسري سيرًا على الأقدام على طريق المتحف...

كنا نخبرهم القصص، ونخترع الأعذار، كنا جميعًا ولو لم نُظهر لهم، حزانى وتعساء وضحايا.

كنت أنظر خلال هذه السنوات بأسى أكيد إلى عينيّ أبي تشاهدان سنوات الحرب المريرة وكأنهما تشهدان تحطّم هرم كبير...

أبي الذي ساندني في زواجي المختلط... أبي الذي يعتبر أولادي أولاد هذا الوطن في تنوّع انتماءاته... أبي... كان غشاء من دمع القلب يغلّف عينيه وهو يستوعب بمرارة أن كل ما راهن عليه لبناء لبنان المقبل، إلى ضياع.

كان شجاعًا، يرفع صوته بالحقّ أمام الجميع ولا يخاف. لكنني كنت أرصد آثار تهدّم الوطن تتراكم على قلبه وهو يجاهد ليؤكد لنا، أن لبنان هو الحلم الذي أراد، لا هذه الهمجيّة العابرة.

في هذه المرحلة، كان إخوتي وأخواتي قد أنهوا تقريبًا دراساتهم الجامعية، بربر وأسامة في الهندسة المعمارية، حنا في المحاماة، كمال في الطب، فاديا في العلوم، وقد حاولوا العمل الصعب، أو تزوّجوا... أو هاجروا...

وعلى رغم كل الظروف والطرقات المرصودة، استمرَّ أهلي على جمعنا كل يوم أحد، كما اعتدنا، حول مائدة البيت الكبيرة، وقد تصدّر سمك جبيل، وهو طبق الأحد التقليدي، وسط الطاولة.

اعترف أنني لم أستوعب مقدار العمل الذي كانت تقوم به أمي بمفردها وهي تخطر كصبيّة لا مبالية في خدمة تسعة أولاد وزوج وزوار

دائمين، إلا عندما تزوّجت، وأصبحت في بيتي، أحسب ساعات العمل والطبخ، مضافة إلى ساعات عملي في الخارج واهتمامي بأولادي وإلحاح الواجبات اليوميّة.

في هذا الزمن القاسي، ازدادت معاناة أبي الصحيّة، وعانى من حساسيّة بالغة في التنفّس، وكان ينام في غرفته التي تغطي جدرانها مكتبة كبيرة.

"حساسيّة متأتية من غبار الكتب ومن غبار الخشب" حذّره الطبيب.

... الخشب؟ كانت حياة أبي تتجوهر في ملامسة الخشب... الكتب؟ كانت حياة أبي في اقتنائها ولمس صفحاتها... ورفقة أفكارها.

نظر إلى الطبيب بأسى وقال له: "إن سعادتي هي بين الخشب والورق... جد لي حلًا آخر يعزّز حياتي بينهما"... وذات يوم، وكانت أمي تحاول، على الرغم من كل شيء، إشاعة جو البهجة والراحة من حوله، حزن عميقًا، وخانه قلبه، فأغلق عينيه إلى الأبد، وهو مستلقٍ في غرفته، أمام مكتبته التي كان يفتح عينيه صباحًا محييًا إياها، ويغلق عينيه مساء مطمئنًا عليها.

مات وقد اتكأ رأسه على جريدة اليوم... كان يقرأ... في أناقة الموت، كما عاش في أناقة الحياة...

انسحب بجلال كبير، وهو يطوي قلبه على انكسارات لم تكن في الحسبان.

فقدت أبًا، ولكنني فقدت قارئًا وناقدًا كان يتابع مقالاتي وكتاباتي بحسّ نقدي ثاقب، ولا يسمح لي بأي تهاون... فقدت أبًا مستشرفًا للمستقبل فكرًا ونهجًا.

كنت لا أزال أكتب وأحاضر وأدرّس، في مجال تاريخ الفن، والتربية، والعلوم الاجتماعية، والنقد الأدبي... وعندما كنت التجئ إلى الدراسات التاريخيّة، كانت تلحّ عليّ مواضيع الحاضر، ويطلّ عليّ التساؤل عن واقعنا المقلق الحزين، فأكتب عن تأثير الحروب على النساء، وعلى الأطفال، وعن تحوّل القيم في زمن الحرب، وعن صور النساء في إعلام الحروب.

عندها، ازداد نشاطي في الجمعيات الأهلية المناهضة للعنف والحرب، وتحوّل عملنا نحن النساء من التزام قضايانا التحرّرية المعاصرة إلى العمل مع كل النساء في الإغاثة والنجدة والمؤاساة... لم نكن أهل سلاح، أي أهل قوّة، فكنا نبتدع طرق تعبير سلميّة جديدة لتأكيد رفضنا للحرب.

كنا نقوم بحملات تبرّع بالدم مع الصليب الأحمر، كي يتبرّع كل لبناني بدمه إراديًّا بمواجهة الدم المهدور عبثًا في معارك الإخوة، كي يتبرّع اللبناني من كل المناطق والطوائف بدم الحياة، لنجدة أي جريح

على أرض لبنان.

كنا ننام في العراء، على ممرّ المتحف، رفضًا للفرقة وتأكيدًا للقاء.. وفي الصباح، كنا نسجّل أعداد الناس المقاومة والمجتازة لهذا المعبر بعشرات الآلاف، للعمل والعيش والتبادل والإلفة.

أذكر هنا، لور مغيزل، رحمها الله، وقد حملنا معًا في تظاهرة كبيرة، وثيقة تحوي آلاف التواقيع من اللبنانيين الرافضين للحرب، وأذكر بالمقابل، القصف والمعارك التي افتعلها المتحاربون لتفريقنا كي لا تُسمع، لا هنا، ولا في إعلام العالم، صرخة الرفض للحرب والدعوة إلى الحياة.

كنا نقوم بحملات توعية في المدارس: مع السلام، مع لبنان، ضد العنف... وعندما كان العنف يزداد شراسة، كنا نتراكض هلعًا لحماية أصدقاء وصديقات توزّعوا في كل مناطق لبنان.

أذكر هذا ليتّعظ شبابنا اليوم من حرقة الأيام المسفوحة والوطن الملقى على حافة الخطر.

بين جولة وأخرى، كنا نعود إلى النشاط الثقافي والتنموي. في هذه الفسحة، بدأت العمل في جمعية تعنى بالتراث، وكأنني أتحسّس معنى الانتماء إلى أفراح وأتراح وقيم واحدة. حاولنا العودة إلى جذورنا وتقاليدنا وعاداتنا لتذكير المقاتلين والناس العاديين، أننا سنلتقي دومًا وسنعيش

دومًا معًا، مهما جرى.

وعندما أصبحت رئيسة لحلقة الحوار الثقافي، كانت الحلقة قد مدّت فروعها إلى كل المناطق، إلى كل موقع في لبنان، ينبض فيه توق للحفاظ على التراث وتطويره وتحديثه، كما كانت الحرب قد تعبت، وكان بإمكاننا أن نرفع الصوت، أن نقيم المشاريع، ونستدعي الباحثين في مؤتمرات دولية عن التراث والعولمة والتاريخ والحداثة.

كان التدريس في الجامعة اللبنانية، يستحوذ عليّ انتماء ووقتًا وشغفًا... وزادت الحرب من إيماني بأن التعليم في مجتمعاتنا – وخاصة– في المجال العلمي والإبداعي والتقني، هو مدماك الخلاص الذي يستبطن رسالة تربوية ووطنية أكيدة.

عندها حاولت تبديل طرق تعليمي لتاريخ الفنون والحضارات، كنت أدرّس أولًا كل حضارة على حدة... مصر، ما بين النهرين، اليونان، الرومان، بيزنطيه...

حاولت تبديلًا في الأسلوب بأن اخترت، مثلًا، قنطرة أو تاج عمود أو تمثالًا أو زخرفة مداخل، اجتاز بها أفقيًا– بالمقارنة– كل الحضارات، كي يستوعب الطلاب أن ليس هناك من حضارة أرقى من حضارة، ولا من دين أرقى من دين، بل هي سيرورة الإنسان المتواصلة التي تدعو إلى استيحاء من سبق، والجود لمن لحق، حتى لو كان منتصرًا غالبًا. هذا النهر المستفيض، وهذا العطاء المتدفق في حضارات

الإنسانية، نعطيه أسماء وعناوين، نحدّده بمحطات وأماكن تاريخية... في مصر، في ما بين النهرين، في أثينا، في روما، في القسطنطينية، في بغداد، في البندقية...

ولكن الحضارات لا تتشكّل إلا بالتواصل والتفاعل والصياغة المتنافرة – المتآلفة، مع إنسان واحد ومتجدّد في أسى أحزانه، في عمق خوفه من مجهول، وفي سعيه الحار نحو مطلقٍ أسمته بعض الحضارات، كواكب أو آلهة، وأسميناه نحن الواحد الأحد.

كنت أعطي مثلًا بسيطًا عن المسجد الأموي في دمشق، حيث تتالت الشعوب، وبنت على الموقع نفسه الموسوم بالقداسة – معبدًا آراميًّا، استُخدمت أحجاره في بناء هيكل روماني شاسع، ثم استُخدمت أعمدة وجدران وتيجان الرومان لبناء كنيسة، ثم استُخدمت أعمدة الكنيسة وأقسامها لبناء مسجد، زينت باحته فسيفساء بيزنطية، واحتفظ في داخله بمدفن للقديس يوحنا.

إن الإبداع الإنساني يهزأ بالانتصارات العسكرية والسياسية ويغرف من عمق واحد، يتلوّن برموز جديدة وبطقوس إيمانية مختلفة.

أصبحت أعتبر تعليمي، ولو في تاريخ الهندسة، رسالة ملحّة لتنقية الطلاب من عصبية الانتماء، ودعوة إلى العقل والحكمة وإلى تقبّل الاختلاف واحترامه.

ربما كان هذا الهمّ نتيجة الهاجس الذي سكن جيلنا، جيل الستينيات والسبعينيات... نحن الذين كنا نعوّل على دورنا "السياسي" في مجتمعاتنا... وعندما حان وقتنا... كان لبنان قد زحف إلى منحدر العنف وكان العالم قد انحدر إلى عصبياته.

إنما كانت تجربة حياتي العائلية تمدّني بالعون الكبير... كان قد مضى على زواجي أكثر من عشرين سنة، وأنا أنعم بتجربة زواج مختلط يصقل نفسي ونفوس من حولي ويحرّرها من الأفكار المسبقة.

عندها بدأ أولادي بتساؤلاتهم الدينية. كانوا يحتفلون بكل الأعياد الدينية في لبنان دون استثناء، وقررنا أنا وزوجي أن نعرّفهم على كل الأديان وألا نحرمهم أيّ معرفة إنسانية وروحية، كي ينعموا بكل خيرها، ويستظلوا ما شاؤوا من روحانيتها.

كانت مسؤوليتي أن أنقل إليهم ما تحويه الكتب المقدسة، من تعاليم وقيم، وأن أرشدهم إلى الطقوس المتنوعة والمتشابهة للعبادة والصلاة، وقد رأوا أننا نحن الأهل، نحمل بعمق هذه القِيَم، نمارسها في عيشنا اليومي، أبعد من أي انتماء.

كنت أقول لهم، نحن استطعنا أن نكون أحرارًا فحاولوا أن تكونوا أحرارًا... نحن لا نختار لكم أي انتماء... الآن أنتم تعرفون الكتب المقدسة والصلوات والمبادئ ولكن الإيمان... الإيمان من شأنكم أنتم... فالإيمان كالحب، يُعاش ويتطوّر ولا يُدرَّس ولا يُفرض... تعرفون المنابع،

عليكم الآن بالجهاد الصعب لبناء شخصيّتكم وتمتين إيمانكم كما ترغبون.

اليوم، أنظر إلى أولادي بفخر وثقة، لأنهم استوعبوا في داخلهم الخلاصة السمحة لتعاليم كل الأديان، وأصبحت العودة إلى الضمير هي المرجعيّة الإنسانيّة والروحيّة داخل أنفسهم، حيال أي شر أو خير.

يغبطني -عندما أحادثهم- إحساسهم الغني بالأخوّة الإنسانيّة، برفض الظلم والقهر والطبقيّة. هم يستظلّون نعمة في داخلهم، تغمر ذاتهم بالنقاء، والأخلاق الرفيعة ومحبّة الآخرين، هم يقبلون برحابة كل اختلاف حتى لو كان مخالفًا لمعتقداتهم... ولا يُستَعبدون ما داموا أحرارًا...

ومساء، عندما يغلق عليه كل منهم باب غرفته فأنا على يقين أنه يلتقي اختيارًا واختبارًا، الحقيقة الإلهية والصفاء الروحي ومصالحة الذات التي أتمناها له.

وتذهب حروب... وتأتي أحداث... ويعيش اللبناني في حقل ألغام سابق، وفي حقل تساؤل مستقبلي مقبل.

أولادنا يعرفون أن لبنان وطن يعاني ولا يزول، يعرفون أنهم أحفاد تاريخ مشرّف للإنسانيّة، وأنهم من عائلات تحبّهم دون حساب. ولكن أولادنا أجنحة تودّ الطيران دون أن تدمّى كل مرّة.

أولادنا توق إلى تحقّق وإلى سعادة وإلى حريّة.

أمام نظراتنا المنكسرة واعتذاراتنا المتواصلة عن تحقيق مستقبل آمن لهم، كان أولاد أصدقاء لنا يسافرون للدراسة والعمل أو لمجتمعات أخرى بعيدة ولا يعودون.

أتى دوري كالعديد من أمهات لبنان... ولم تكن قراءة نص لجبران بالعربية في حفل زواج ابني جاد في أميركا، إلا استدعاء لإبداع هذا الوطن... واختلطت دموعي بنصّ جبران... ربما كنت أبكي حرقة البعاد والغياب وهجر الأبناء... أبكي عن كل أم لبنانية تشتاق وتخفي في قلبها حسرة هذا الوطن الذي ينحر نفسه ويزيّن العالم بزهرة أولاده.

الآن، وعندما تستوحي ابنتي رنا في لوحاتها، وهي رسامة ممتهنة، أشجار لبنان، لتلتصق أكثر بأرض هذا الوطن، نلتصق نحن بها، لئلا يصيبها ما يصيب شباب عمرها من وهن وإحباط، من حياة تتكسر وتلتئم وتعاود التحطّم والالتئام في مجتمع يستعيد أخطاءه وينسى دومًا دروس ماضيه.

7

حلو الحياة ومرّها...

في جبيل، أقمت مع عائلتي في بيتٍ صغيرٍ أليفٍ يطلّ على البحر، ويطلّ خاصة على صخرة "الدوّار" التي ربيت أمام سحرها وتحوّلاتها، كي يكبر أولادنا وهم يحبّون ألوان البحر، ويتذوّقون فصول الطبيعة، ويعشقون أرض لبنان وزهور حقله وحصى شواطئه.

كانت أمي لا تزال في بيت العائلة، حارسة ذكرياتنا، مستعيدة بأمانة لطقوس العائلة. كانت لا تزال تدعونا كل يوم أحد، كالعادة، إلى مائدة السمك التقليديّة، مع أن الوهن تسلّل إلى جسدها النحيل دون أن ينال من ضحكتها الرائعة، وحفر العمر على يديها شرايين زرقاء ناتئة، وتثاقلت مشيتها، دون أن تجعلنا نحسّ أن شيئًا ما قد تبدّل.

وذات يوم عندما نزعت من حول رقبتها أيقونة ثمينة كانت من هدايا أبي إليها، وقلّدتني إيّاها بإلحاحٍ شديد، رفضت وجزعت وقفزت الدموع من عيني، تمامًا، كما ألحّ أبي ذات يوم على زوجي- وقبل أن يخطفه العارض القلبي بأسابيع- كي يقبل منه قلمًا قيّمًا، جوهرة مجموعته الكبيرة من أقلام الباركر التي جمعها خلال نصف قرن.

كانت هذه الهدايا المفاجئة- دون أن تفصح عن معانيها- هدايا الوداع والموت المختبئ في أسارير هادئة.

ماتت أمي، بعد ما عاندت الصحة والحياة، وبعد ما حفظت في قلبها الكثير... كأمهات جيلها.

ماتت بعد ما طبعت أولادها والأصدقاء والجيران بذكراها المتواترة... كان الجيران أحيانًا عندما يتكلمون عنا، لا يذكرون أسماءنا بل يقولون أولاد جوزفين ورفيق، تأكيدًا على نوعية تربية ونوعية حياة.

كانت أمي ملجأ الجميع ومصدر اطمئنان وفرح، ومدرسة حياة، ولم يخلُ بيتنا يومًا من جارة أتت لتطلب المشورة، أو لتتأكد من صلاحية دواء لولدها، أو لتتقن تفصيل ثوب أو قطبة صوف، أو لتغرف من قوّتها النفسية، أو لتطلب منها أن تكون عرّابة لطفلها أمام جرن المعمودية- وقد عرّبت لعشرات الأطفال- أو وسيطة بينها وبين أهل بيتها، وقد جعلت البيوت، في عمشيت وجبيل، أكثر إلفة ومحبّة.

عندما فقدت أمي، كنت قد تخطّيت عمر الشباب بكثير... ولكن عندما خالجني شعور أنني الآن دون أب ودون أم، اجتازني هلع وجودي، حاولت تبديده عندما ضممت ابنتي رنا إلى صدري وقلت لنفسي:

"حقًا، لقد كانت الحياة كريمة معي!". نعم، لقد كانت الحياة كريمة معي، بالرغم من كدماتها الزرقاء وندوبها العميقة في قلبي.

أنا الآن أحمل جميل كل من أغنى حياتي بهذا الكرم، وهم كثر: البعض منهم يعرف، والبعض لا يفطن إلى ما حباني به، والبعض لم أتنبّه أنا إلى محبته الصامتة، والبعض- وهنا يجتاز قلبي ومض مرارة- عندما لم أعرف عمق مودّته إلاّ بعد فوات الأوان.

الآن وقد فتحت لكم أبواب نفسي بعفويّة وحميميّة وصدق كما يتهاطل المطر على رخام أبيض.

أتوقّف لالتقاط أنفاسي، ولإلقاء نظرة على طريق اجتزتها وعلى مسار صنعته وصنعني.

أعترف أنني أولاً حظيت بالكثير... حظيت بالكثير من عائلتي التي أدركت وقبل عصرها أهميّة تعليم البنات وإطلاق قدراتهن.

من محيطي الذي كرّسني، فتاة مجتهدة، وأنا لا أزال في الصفوف الابتدائية، أقرأ الجريدة قبل كتاب القراءة المدرسي... من طفولة سعيدة مع إخوتي وأخواتي في بيت وسيع جميل، يخترقه الضوء والشمس ومحبّة الناس.. هذه الطفولة السعيدة التي لا تزال تغذيني بمنابع فرح وبابتسامة رحبة تضيء تجاعيد العمر.

"تحالفي مع الحياة ولا تتحالفي مع من يريد أن يهزمك". كان يقول لي أبي ويردّد: "إن من يوجّه إليك لكمة، لا يغلبك بقوّة اللكمة فقط، بل لأنك أنت قد حفرت في داخلك فجوة لتلقّيها".

ثانيًا، حظيت بالكثير، ولكنني أعطيت الكثير بالمقابل، تعلمت لذّة العطاء وأدمنتها وأورثتها لأولادي... حظيت بالكثير، ولذا أحببت كثيرًا ولم أبخل بمودّة أو مساعدة أو مشاركة.

كنت قد أيقنت أن المحبة هي القيمة العظمى في الإنسان، مهما علت الرتب ومهما قست الدنيا.

واليوم يرتجف قلبي خوفًا على ابنتي التي استبطنت هذه القيم، في عالم يلغي المحبة ويحتقر الإنصات ويستضعف المتواضع... لكن علينا أن نحرس هذه الجذوة الإنسانية ولو كلّفتنا الكثير.

ثالثًا: أحببت كل عمل قمت به، واعترف بأني لم أقم بأي عمل إلا لأنني شغفت به.. هل كان صدقًا أم أنانيّة؟ اعتقد أنني حاولت في الحيّز الذي أتاحته لي الحياة، أن أتحالف مع حرّيتي ومع نوع من السعادة، أفرحت قلبي، ونشرت فرحها على من حولي.

رابعًا: علّمتني مهنة التعليم العديد من الأمثولات، كان أهمّها معنى العطاء والكرم المعنوي وقدرة الأستاذ على صياغة فكر، ومنهج، وعقل، وقيم. فالمعلومات الآن في متناول الجميع، ولم يعد الأستاذ خزان معلومات... هو تجربة إنسانية، وعقل نيّر، اخترقتهما المعرفة فكوّنت عقلا وقيمًا ونهجًا ينقلها إلى طلابه منبع تساؤل وتحفيزٍ وإبداع.

أفرحتني هذه المهنة ومنحتني التعب الجميل، فأنا حيال الطلاب، استنفد نفسي عقلًا وجسدًا، ولم أكرّر نفسي مرّة، خلال ثلاثين سنة ولو في صفوف متشابهة متكرّرة. وما أن تومئ إليّ معرفة جديدة حتى يتحفّز عقلي دون حدّ... فأقع في شرك الإبداع الذي لا يجد وقتًا للاكتمال...

تعلّمت من حياتي الزوجيّة ومن أمومتي، أن التضحية الطوعيّة هي التي تكشّف حياتنا وعلاقاتنا، وأن حسّ الفكاهة، فاكهة يوميّة ضروريّة كي نجابه مصاعب الحياة ومفاجآتها.

من كتاباتي، تعلمت أن للكلمة التأثير الكبير، وأن من يكتب يقدّم جمالات وينسج أفكارًا كي يفهم القارئ نفسه والعالم، ولذا كتبت دومًا بعمق إنما بوضوح وبساطة لتصل الرسالة، سلسة إلى كل مصغٍ.

تعلمت أن الصدق يفصح عن نفسه دون دفاع، وأن نبض الإنسان الصادق يُلتقط ويؤثر ويصيب من دون جهد.

ولكن كم تمنيت لو استطعت لملمة نفسي والكتابة في مجال واحد. عبثًا... كان نهمي إلى المعرفة وتمكني السهل في الانتقال من مجال معرفي إلى آخر، يطيح بكل قراراتي... وكم تمنيت لو توقّفت وسجّلت وكتبت ونشرت كل ما ساورني من أفكار وأنضجني من تجارب.. ورغم إلحاح الأصدقاء الخلّص لم أستطع إلا بصعوبة أن أشيح بوجهي عن جاذبية العيش وسحر الحياة المتنامي بما يشبه الهباء.

اقتنعت أخيرًا بأن التراكم الثقافي الغزير، لا يشتّت بل سيمنح مقاربتي لأي موضوع، مصادر ضوء متنوّعة، وسيمنح تعبيري شخصية وغنى وفرادة.

من الجمعيّات الأهليّة، تعلّمت الحب والاهتمام بكل إنسان، رأيت رؤية القلب، كيف يحاول الإنسان-كل إنسان- في معركة وجوده، أن يشقّ طريقه، أن يعيش، أن يفرح، وأن يحتمل عبء الحياة اليومية الذي لا يحتمل في تكرّره وفي مشاكله الصغيرة.

تعلّمت أن البطولة صفة مخفيّة عند هؤلاء الناس، وهي ليست صوتًا وسيفًا وصهوة حصان، إنها القدرة المتواضعة على عيش تفاصيل الحياة، حتى في أصعب الظروف وأكثرها مرارة وعبثيّة وعبئًا.

تعلّمت قيمة النساء ومعاناتهنّ وصمتهنّ التاريخي الذي صنع مجد الرجال، وأنا أرافق وعيهنّ لمعنى الوجود والاختيار والقبول والكرامة.

تعلّمت العطاء الحييّ الصامت السعيد من دون منّة، والاعتذار العميق ممن لم تفسح له الحياة في عطائها كما أفسحت لي ولغيري... اعتذر بخفر لأني أنا العاطي وهو المحتاج فأنحني وأعطي كأني أنا السائل.

تعلّمت، وأنا في هذا العمر، أن ملكيّة الأشياء الكثيرة والعديدة، عبء على النفس التي تتمنّى أن تتنقّى للوصول إلى الأساسي، وتعلمت ألا تتزعزع نفسي أو تتبدّل إذا امتلكت الكثير، أو إذا فقدت الكثير.

تعلّمت ما أصبحَ الآن من خلايا جسدي ومن نبضات قلبي، فلم يعد باستطاعتي أن أفصله عن نفسي. ولكني تعلّمت، بإلحاح وإصرار وإيمان، أن لبنان وطن رائع، ليس لذاته وحسب بل للإنسانيّة جمعاء.

وطن التنوّع الخلاق في الطبيعة كما في الناس. وطن الشاطئ الذي يدرّب على استقبال الآخر وقبول اختلافه. وطن الحضارات العريقة التي نسجت خلايا الإنسان. الوطن المبدع المحفّز لطاقات أهله المبدعين.

اليوم أصل معكم إلى الحلقة السابعة من هذه السباعية.

فهل انتهت الحكايات؟

اسمحوا لي أن أتوقّف وأشكر إذاعة صوت لبنان والمخرج جورج الحلو، والصديقة الرائعة ورده، فلولاهم لما حفرت في أعماق نفسي، مستعيدة حياتي وتجاربي وقناعاتي متسائلة وماذا بعد؟

هل انتهت القصّة؟

هل خانتني الذاكرة، فلم أخبركم بكل شيء أو ساورني الحياء فلم أفصح عن كل شيء؟

إن القصص لا تنتهي، بل تمسك بأطراف بعضها، وتتواصل كالحركة التي تضفر بها الجدات شعر جدائلها.

"هاي قصّتي حكيتا وبعبّكم خبيتا" كانت تقول لنا أمي مساء عندما تخبرنا الحكايات لكي ننام باطمئنان...

اليوم، لا أنام باطمئنان، ولو رويت لنفسي القصص. أنا لا أنام باطمئنان، وأرى لبنان الذي أحبّ يتبدّل قسرًا وأرى النساء وقد تطوّرت أنواع استعبادهن، أرى شباب الوطن وقد ازداد يأسًا وبعدًا... ولكن...

إذ استعيد تاريخ لبنان

وقصص الجدّات والأمّهات

والأمل الذي لا يخبو

أستودعكم محبتي

أستودعكم إيماني المطلق بهذا الوطن

وطن من ذهبٍ وتبر... ولو لطخه تراب عابر!

أيار 2007

حكايات لا تنتهي

1

2

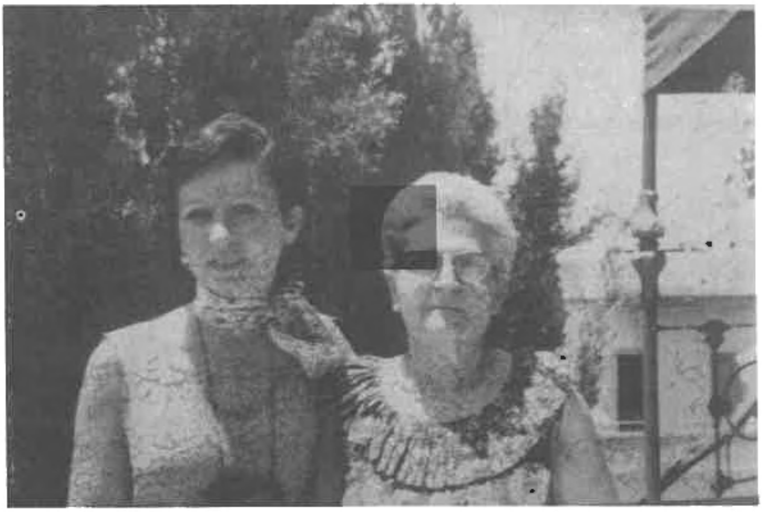

3

1- أبي وأمي: رفيق أبي حنّا الكلاّب وجوزفين نخله زخيا الكلاّب

2- أبي رفيق في مقتبل العمر

3- مع أمي جوزفين على شرفة منزلنا في جبيل

2

1

1- الطفولة في عمشيت

2- الصبا على شاطئ جبيل مع شقيقتي أسمهان

الأخوة والأخوات

1

2

3

4

1- بعض أفراد العائلة مع الأهل أمام حقول الموز الشاسعة المحيطة ببيت جبيل

2- أربع شقيقات من اليسار: رشيده، فاديا (افرازيا)، نهاد، إلهام

3- مع أختي الكبرى رشيده أمام تين عمشيت

4- مع أخي الأكبر حنا

1

2

3

1- مع أختي نهاد

2- أختي أسمهان وسلام الوداع

3- مع أخي برير

1

2

3

1- مع أختي فاديا (أفرازيا)

2- مع أخي كمال وابنتي رنا

3- مع أختي أسامة

1

3

2

1- فاديا وأسامة وزوجي هشام وابنتي رنا

2- مع أسمهان وفاديا

3- "أسرة تحرير الصحيفة المنزلية" التي كنا نصدرها في البيت في الخمسينيّات. في الصف الأول من اليمين: حنّا، برير، إلهام، أسمهان، في الأعلى فاديا وكمال

2

1

4

3

5

1- 2- مع زوجي هشام البساط في منزلنا في بيروت

3- العيد في العائلة مع هشام ورنا وجاد

4- على شرفة منزل جبيل أمام شجر الغريفيليا

5- في بنسلفانيا أمام جامعة جاد

2

1

3

5

4

1- 2- 3- مع رنا وجاد من الطفولة إلى الشباب

4- طفولة رنا

5- طفولة جاد

1

2

3

4

5

1- اجتماع العائلة
2- مع رنا
3- مع جاد
4- هشام ورنا وجّاد أمام منزلنا في فردان
5- حنان رنا ورقة هشام

العائلة والأحفاد

1

2

3

4

5

1- عائلة جاد يوهانا وسِنان وثريا
2- بين هشام وإلهام ورنا، جاد مع سِنان ويوهانا مع ثريا
3- احتضان الجدّة
4- سِنان
5- ثريا

بعض المحاضرات

1

2

3

4

5

1- في الجامعة اللبنانية ـ الأميركية في بيروت
2- في معهد غوته- بيروت
3- في الحركة الثقافية - انطلياس
4- في معرض الكتاب في فرنكفورت
5- في مجلس الشيوخ في باريس

بعض المؤتمرات

1

2

3

4

5

1- في الملتقى الدولي للثقافة الشعبية - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة
2- في مؤتمر الثقافة الشعبية في جامعة المنصورة- مصر
3- في مؤتمر المرأة العربية في عمّان
4- في مؤتمر حوار الحضارات في تونس
5- في احتفال مباراة التعبير والإبداع لجمعية اللبنانيّات الجامعيّات بيروت

1

2

3

4

1- بيت الطفولة في عمشيت الذي أصبح داراً للبلديّة
2- صخرة الدوّار التي ترصّع بحر جبيل
3- أمام المركز الدولي لعلوم الإنسان للأونسكو في جبيل
4- أمام كاتدرائية مار يوحنا الأثرية في جبيل

2

1

4

3

1- الميناء التاريخي الشمالي الذي انطلقت منه سفن فينيقيا
2- حقل الآثار الذي يحوي معابد الآلهة ومدافن الملوك وآثار الحضارات المتعاقبة
3- المدرّج الروماني والمسرح المقابل في حقل الآثار في جبيل
4- البيت التراثي الذي يجاور حفريات مساكن الإنسان النيوليتي

تحوّلات

1

2

3

4

5

1- في تلفزيون لبنان في السبعينيات
2- في تلفزيون المستقبل في الثمانينيات
3- في تلفزيون أن بي أن في التسعينيات
4- في المدينة الجامعية في باريس في الستينيات
5- لملمة أوراق الخريف في المدينة الجامعية في باريس بعد نصف قرن

بيروت 2020-2021

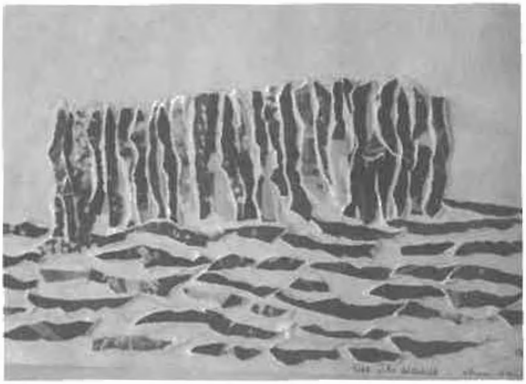

2   1

3

1- انفجار مرفأ بيروت – لوحة من صور ممزّقة لمدينة بيروت
2- في عين المريسة نصب جامعة اللاعنف في لبنان
3- منحوتة راسخة في قلب بيروت "... ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر..."

"رفيق"... الأب الطليعي والقدوة(*)

لا أعرف كيف استطاع أبي "رفيق"، في ستينيّات القرن الماضي – وهو لم يدخل جامعة ولم يعرف سفرًا– أن يتوقّد حماسة لإرسالي وأنا أقارب العشرين من عمري كي أكمل دراستي في باريس.

لم يثنه عن تصميمه، لا حذر أمي، ولا تحذير الأقرباء، ولا خوف العائلة على ابنتهم في باريس "بلد الضلال"... كان توقه يفوق شجاعتي، هو الذي كان يعرف باريس كعاصمة الحداثة والنور من خلال روايات وقصائد شهيرة والاسم الموحي للسوربون والحي اللاتيني.

نشأت في جوّ عائلي كبير... تسعة أولاد يملأون مقاعد ونوافذ وأسرّة البيت. ست بنات وثلاثة أبناء، يتنافسون بالتساوي في المدارس والجامعات ويحوّلون البيت إلى قاعة مطالعة فسيحة كان أبي يغذّيها بشراء الكتب والمجلات كأرغفة الخبز.

في مراحل الامتحانات المتواترة، كانت السعادة تغمر أبي، عندما يتحوّل البيت إلى كتب وأقلام ودروس مستعادة، وهو يسعى بريادته وطموحه إلى تأمين تعليم بناته، في زمن، وفي قرية، كان ذهاب الفتاة فيها إلى المدرسة– القريبة طبعًا من البيت– بمثابة قاعة انتظار لمجيء العريس.

(*) د. الهام كلاّب - تقرير التنمية البشرية للإسكوا.

كنا ست بنات، وكان الناس يقولون عن أبي إنه على قدر ما يحبّ بناته، أعطاه الله "حسب نواياه". ولكنه هو القارئ المثابر والمتأثر بأدباء النهضة ودعوات التحرير، اعتبر كل فتاة منا، مشروعًا إبداعيًّا، يستعيد من خلالها نموذج أمي المتعلمة المثقفة الجريئة، المتميّزة عن بنات جيلها في العشرينيات، مراهنًا على إيمانه المطلق بأهمية النساء ودورهن من خلال تعليم بناته وإطلاق أجنحتهن...

وعندما ارتحلت كل القرية إلى مطار بيروت، يوم سفري، لتودعني بالدموع والشوق والوصايا، لم يثقل أبي فرحي بأي نصائح تقليديّة، لم يردّد الوصفة التقليديّة الخائفة: "انتبهي على حالك"، بل تابع مرور شاحنة بقرب سيارتنا المرتحلة، وقد سجّل عليها كالعادة: "الوزن الإجمالي" و"الوزن الصافي"، ونظر إليّ قائلاً: "أنت هنا تنعمين بوزنك الإجمالي بفضل بيئتك وعائلتك، اذهبي واصنعي وزنك الصافي".

لكنه، كان ينسج تواطؤًا خفيًّا بيني وبينه، يحمّلني عبء الريادة وطيبها، وكنت أتخيّل نفسي كأبطال المسرحيات التي نمثّلها على مسرح المدرسة، أتعثّر فأصاب بلعنة الآلهة، أو أنجح فأشقّ الطريق المنير لكل بنات جيلي.

رافقني طويلاً هاجس المثال كردّ لجميل والدي، دون أن يعطب عينيّ الناظرتين بدهشة إلى كل جديد، وقلبي المغامر التائق إلى كل رغبة وعشق وفرح.

لكن أبي الذي كان ينتظر رسائلي، ليتلو منها المقاطع المؤثرة على الجيران والزائرين، كان حليفي الدائم في مراحل سكوني وحماسي،

تكاسلي واجتهادي، تعثّري وتألقي، ولم يكن يطلب جزاء سوى أن أنجح، وأن استوعب حس المساواة الطبيعي، وأن أتذوّق كل وهج هذه الحياة التي أعطيت لي.

كان هذا الحلف السريّ الذي ربط بين جرأته واستجابتي، يغذي طموحه المستعاد فيّ، ورغبتي العارمة في ارتياد سحر المجهول إلى أبعد مدى، وقد تذوّقت المعنى الإنساني العميق للحرية.

وبدل أن يكافئ الأب ابنته صرت البنت التي تحاول بنجاحها مكافأة أبيها.

عندما أتفقد نفسي اليوم، وقد اكتنزت بالتجارب الإنسانية والفكرية الرائعة التي أتيحت لي بالسفر المغامر مع حقيبة لا تحتوي إلا على التوق والدهشة والتحدي، والتفت إلى بنات قريتي، وبعد نصف قرن تقريبًا على هذه القصة، فإذا بكل فتاة- وعلى الرغم من التقدم الهائل في تعليم النساء- تستعين حتى اليوم بمثال أبي، وبمسار حياتي، لكي تقنع أهلها بأن تعليم البنات وانطلاقهن الفكري وسفرهن للدراسة، نجاح وقدوة وطريق واعد لمستقبل هذا القرن، كما لمستقبل الإنسانية.

من نافذة مكتبي(*)

من نافذة مكتبي التي أفتح مصراعيها كل صباح على قلعة جبيل وآثارها، تنفتح لي صفحات من التاريخ السحيق ومن الحضارات القديمة، صاغتها الشعوب المتتالية على هذه الأرض الرحبة والعريقة.

من نافذة مكتبي، تجول عيناي على منظر متواصل يجمع بانسياب وبساطة ما بين معابد آلهة بعلة جبيل، وكنيسة مار يوحنا الصليبية ومسجد أثري قديم، تشاركوا معًا في الحجر الرملي الذي يضفي على المنظر بهاء القدم وحوّلوا معًا المكان إلى موقع قداسة متآلفة، تتناغم في أسرارها وتتبادل طقوس خشوعها وتهزأ من كل العصبيات.

من نافذة مكتبي حيث تتوالى أوابد ستة آلاف سنة تختلط أحجارها وبقايا موتاها وآنية عيشها وحلي نسائها، ويتغذى تراب كل منها من تراب الآخرين. من هذه النافذة تنفتح أمامي صفحات من نقاشات هذا العصر وصراعاته.

وإذا بي أستعيد، وتستعيد حواسي الملتصقة بهذا المنظر، معنى حوار الحضارات وخصب التفاعل بين الثقافات، والتواضع حيال كل

(*) مجلة الجيش العدد 211 – كانون الثاني 2003.

عطاء لم تحتكره حضارة، وإلحاح أمثولات التاريخ.

من نافذة مكتبي الذي يستعير حجارته الرملية من حجارة سور القرون الوسطى ويحاور بإلفة حضارات العصر الحجري وعصور البرونز والحديد، ومعابد الإغريق وقصور أشور وأعمدة روما، ويطلّ على ميناء فينيقيا الذي حمل إلى العالم أبجديّة وحضارة وتبادلًا تجاريًا مع كل شواطئ المتوسط... من نافذة مكتبي استطيع أن أمدّ يدي لأتبرّك بغبار هذا التاريخ.

كان يعني لي الكثير أن يضم هذا المكان مركز عملي، وأن يكون شباك مكتبي، شباك هذا البيت الترابي الذي كنت ألعب حوله مع رفاقي في طفولتنا، ونحن نرنو إلى قناطره كأبواب قصر غريب. فأنا بنت هذه المدينة، تنشّقت هواء بحرها وتعمّدت في مائه، لملمت حصى أمواجها وأحصيت غيومها وبعثرت شعري عواصفها البحرية الرائعة البهاء.

أنا بنت هذه المدينة، التي منحتني نعمة التجوّل الطبيعي بين أنصاب هياكلها ومدافن ملوكها، ووجل مقاربة عظام الأقدمين وأدواتهم اليومية، برفق وتؤدة.

ثم أخذتني الحياة من هذه المدينة الى آفاقها البعيدة، تلك الآفاق التي كنت أرصدها بشوق كبير عند ملاحقتي الدؤوبة لسياح المدينة. سياح يقصدون الماضي، فيشكّلون لي نافذة إلى حاضري في مدينة تسكن أحجار تاريخها العريق.

أخذتني الحياة إلى آفاق بعيدة، تعلمت وعملت وتزوجت وعشت بعيدة عنها وأنا في عشق دائم لمدينتي التي سكنتني ولم تبارح قلبي وفكري.

الآن عدت إليها بفرح عميق، يتكرر كل صباح عندما أقصد مكتبي سيراً على الأقدام على الطريق التي سلكتها كثيرًا كل يوم وأنا طفلة، إلى مدرسة الراهبات المجاورة. أتفيّأ ظل الأشجار نفسها والجدران نفسها التي كانت تظلّل خطى طفولتي الملتجئة من قساوة شمس أعرف طعم حرارتها في كل فصل.

اليوم أحسّ بواجبي العميق، ككاهنة في هياكلها، ليس فقط تجاه الفكر والعلم، وليس فقط في التزام رسالة هذا المركز في إشاعة روح التسامح والسلام والحوار، وليس فقط لتطابق رسالة عملي هنا مع خيارات حياتي الفكرية والشخصية، بل أيضًا تجاه مدينتي التي لا تزال بالرغم من إمكانات التحقق الضئيلة، تستثير فيّ الأحلام الكبيرة.

إن محاورة التاريخ العريق والعيش في كنفه تتطلب جرأة التخطي، جرأة التخلص من عبء التاريخ كي لا تتحوّل المدينة إلى متحف ويتحوّل سكانها إلى حراسه، جرأة اعتماد التاريخ كحافز لمواجهة المستقبل، في دينامية تفاعل الأفكار والإنجازات.

لا أريد أن أعتبر عودتي عودة مسافر، أظنها استعادة طرف قوس القزح إلى أرضه الأولى. أظنها موجة من أمواج هذا الشاطئ

الذي اعتاد مسامرة الأزل والتحوّل في آن، منذ أساطير إيزيس وأوزيريس وأدونيس وعشتروت.

أظنها موجة قديمة تلتفّ وتعود موجة متجدّدة، ثابتة ومختلفة، تغمر بتواصل طرف هذا الشاطئ، يهدهدها توق حارق لارتياد بلاد غريبة، وحنين جارف إلى جذور الانتماء!

سيّدة البوّابة

هي كنيسة صغيرة مكرّسة للعذراء مريم على باب سور جبيل،
تحمل اسم سيدة البوابة،

تحضن مدخل السوق العتيق،

تتكئ على حائط القلعة الأثري،

وتفتح طريق البحر والصيّادين إلى الميناء.

انجدل وجود هذه الكنيسة الصغيرة بموقعها الأثير في قلب المدينة القديم، كما في قلب كل جُبيليّ، وببركتها الحانية التي تغدقها على من جاورها كرشّة ماء مقدّس توقظ الروح في كل أويقات النهار...

سيّدة البوّابة هي شفيعة الانتظار كل انتظار... وكما تنتظر الأمهات أمام رتاج البيوت وأبوابها بين القلق والفرح عودة الغائب إلى عتبة البيت... تنتظر وتحمي وتبارك وترافق أيامنا وتسامر ليالينا... أليست حارسة سوق المدينة وآثارها وبيوتها؟ أليس الانتظار... الأمل الأبدي؟

إنه وقت الصباح

هي بوّابة تنفتح على الحياة...

تشرّع سيّدة البوّابة قلبها نحو السوق القديم وتنصت إلى صرير أبوابه الخشبية...

... خطوات الناس المتعجّلين إلى عملهم ترنّ على حصى مرصوفة لا تزال تحمل ملوحة أمواج الشاطئ...

باعة يلعبون النرد والطاولة تحت تذكارات السيّاح وعبق قماش وجلد وصوف وصعتر وخبز...

... وقرش قليل وكنوز كثيرة، وتحيّة إلى سيّدة البوابة من كل باب.

ومن على درج الكنيسة تتلمّس يد معروقة لإسكافي قديم، أحجار الحائط الرملي... تغطّ أناملها في ماء الجرن المقدّس... تتحوّل إلى نعمة... تقدّس يومها...

ويلمسة ملاك تحتفي سيّدة البوّابة بطقوسها المرهفة في صباحات ملائكية مع أطفال تعمّدهم بزيت الميرون، ومطر السماء النقي، وزبد الموج المحيي، وماء الدمع المحبّ...

ومن بابها المتواضع، تخرج أمهات جميلات في ثوب مخرّم أبيض، وبين الذراعين نعمة إلهية تحوّل الجبين إلى مسرح غزلان.

إنه وقت الظهيرة

هي بوّابة تستقبل التاريخ...

تشرّع سيّدة البوّابة قلبها نحو القلعة المثقلة بتراثها... تتلوّن كل حجارة جبيل بذهب الشمس ويسترخي حقل الآثار في نعاس يشبه قيلولة الحضارات...

تتمايل نحو سيّدة البوّابة خطوات الشباب والصبايا... وخبايا القلوب، القلوب العاشقة. وتنبعث رائحة الدفلى والعطر والمنتور البنفسجي النابت بحريّة بين أحجارها، كحدائق أدونيس الزائلة.

وفي السوق... رائحة الحجر والعرق والتعب... تجاور التاريخ والتراب والفخّار وتيجان الأعمدة. وجرار وهياكل ونواويس وتماثيل...

وفي القلعة معابد، فتح الزمن أبوابها... عشتروت... إيزيس... ربّة جبيل... سيّدات عشق وجمال وعبادة... ربما جدّاتك... ربما أنت!

وبين الأعمدة، والجدران، والنبع المقدس، وزهر الخاتمية الطويل يتمايل الهواء مترنحًا، يكاد أن ينتزع من يد الصبيّة ورقة مطوية... ورقة تحمل دعاء ورعشة حب، تود أن تضعها في يد سيّدة البوابة... وتنظر إليك الصبيّة... وتراك جميلة... فتدرك أنك فهمت!...

إنه وقت المساء

هي بوّابة تنادي البحر...

تفتح سيّدة البوّابة ذراعيها نحو الميناء القريب...

والبحر مغامرة أسماك ملوّنة داخل فخار أثري أقنعتها الأمواج باللين...

مجاذيف تثرثر عن سرّ الأعماق...

ورحيل صيّاد على أمل رزق...

طريق سيّدة البوّابة في المساء، وقع لخطوات النساء والأمّهات والجارات والشقيقات...

أسمع خطوات العجائز المتأنية تحت قناطر الياسمين وعطره المسائي... أسمع خطوات أمي وكأنها تأتي من عمق العمر... تصعد الدرج... تضيء شمعة، فتفوح رائحة السراج والصلاة... تقفل يدها المترجّية الباب الزجاجي على الشموع المنذورة كي تحمي شعلتها من لفحة الهواء البحري... ويزداد الحائط عتقًا من ابتهالات الشموع...

أسمع خطوات الرفيقات والشقيقات

تعود أختي من غربتها...

تخرج أختي من تعبها...

تستفيق أختي من ترابها...

نمسك بأيدي بعضنا البعض، ندور حول السيّدة ندعوها إلى اللعب معنا في حوش المدرسة...

نأخذها إلينا...

ستخرجك من الصورة الإيطالية المنصوبة فوق المذبح، ونعمّدك بالبحر الفنيقي، وندرّسك في كتاب القلعة، ونرسم على وجنتيك سمرة بنات جبيل، ونجعلك تلميذة صفّنا...

سنستبدل شالك الإيطالي بشال من السوق القديم... وسنفكّ عن كتفيكِ رداء رافاييل ونُلبسك مريول مدرسة الراهبات... وستحذّرك المعلمة: لقد نسيت اسمك معلّقًا على الباب، وتركت بابك مفتوحًا. وربما صدئ القفل من هواء البحر...

إنه وقت المساء...

وقت انبلاج الروح...

وإذ تفرغ الكنيسة من الخطوات، تنطفئ كل الأضواء...

وتدخل كل نفس إلى نفسها...

عند ذاك...

تتمايل شمعة أمام صورة العذراء

تتمايل حتى آخر شعاع... آخر نقطة...

شمعة تتسكب حتى الانتهاء... تلقي بنورها على وجه عذراء لا يفارقها الحنوّ. وعلى وشاح مثقل بذهب النذورات، وعلى غطاء مذبح أبيض حاكت زهوره ابتهالات امرأة مجهولة...

تتمايل شمعة...

مساحة نور وحيدة في عتمة المدينة...

أمام باب واحد مشرّع ومفتوح...

باب سيّدة البوّابة...

حائكة الدّانتيل(*)

نشأت في ظلال تاريخ لا تتّسع له الذاكرة،

وفي أروقة بيت مشرّع الأبواب، متمرّس بالضوء والرحابة.

وأمام بحر يلاطف الشاطئ بأساطير تاريخه.

نشأت ونشأ معي توق جارف للغوص عميقًا في تراب أرضي، وتحفّز متوقّد للارتحال بعيدًا إلى غرابة كلّ أرض في العالم...

بين أديم يختزن الجذور، وأثير يغري بالأجنحة، كانت بداياتي بين عمشيت قريتي، وجبيل منشأي...

فتحت عيني في جبيل على بيت يعجّ بالعيون الكثيرة، والكتب، والناس، وضجيج الحياة والبركة...

كانت النوافذ الواسعة تستقبل الشمس وهي ترسم ظلال أشجار البرتقال على المقاعد والباحات، وتستقبل السماء وهي تتنفّس ملح البحر ثم ترشّه على رؤوسنا وتطبع به مذاقنا.

(*) الكلمة التي ألقيتها في حفل تكريمي الذي أقامته الحركة الثقافية في أنطلياس ضمن المهرجان اللبناني للكتاب 8 آذار 2006.

على فسحات الجدران المنبسطة بين نافذة وأخرى، وبين صور الأجداد والأعياد والقديسين، كانت تتربّع صور للوحات فنية غابرة اختارها أهلي بمعرفة وحبّ.

من بين كل هذه الصور، كانت صورة لوحة "المرأة حائكة الدّانتيل" للفنان فرمير، تستأثر بذائقتي وتجذبني إلى تأمّلها الدائم...

لوحة امرأة متأمّلة، قابعة في سكونها، مستغرقة حتى الغياب في نسج قطعة دانتيل.

كانت هذه اللوحة تسحرني بتشقق ألوانها الصفراء على ثوب المرأة وعلى جبهتها، وبنظرتها المخبأة في انحناءة الرّأس الخفر. وعند استغراقي في التأمل والإعجاب حتى التماهي، كان أبي ينهرني قائلا: "يا ابنتي، إن باستطاعة المرأة أن تصنع أشياء أخرى غير نسج الدّانتيل".

كان همّ والدي الأثير، في خمسينيات القرن الماضي، أن تدرس بناته في الجامعات في زمن كانت الجامعة امتيازًا لم يحصل هو عليه، وكان علم البنات ترفًا مجانيًّا لا مقابل له.

كنت من أوائل الفتيات في منطقتي، والتي سمح لها توق الأهل إلى العلم وانفتاحهم على المستقبل -منذ أكثر من خمسين سنة- بالانتقال إلى بيروت، وبالانتقال أبعد إلى باريس، بالرغم من ضيق الأفق الاجتماعي، وحدود حياة كل امرأة في إبداع- إذا سمح له- فهو لا

يتعدى إتقان حياكة الدانتيل.

كانت المدرسة الأولى في جبيل، أول نافذة تنفتح نحو الطريق والعالم وعلم القرية المتواضع. كانت طريق المدرسة أليفة مع أحجار السور القديم، وأعمدة الحقل الأثري، وزرقة السماء المتوسطيّة، وانطباع الشمس على الحجر الرمليّ، واحتفاء الطبيعة بالفصول، وسحنات سوّاح يأتون من بلاد بعيدة... كانت الطريق مدرسة المعرفة.

أذكر أنهم كانوا يحذّروننا من اجتياز الطريق، وقضيت حياتي أجتاز طرقًا ممنوعة ويحذروننا من الكلام مع الغرباء، ولم أتعلّم إلا من كل غريب مختلف.

واتسعت النافذة، حين ذهبت إلى بيروت أكمل دروسي الثانوية، حظيت بالكثير من العلم والمعرفة، داخل مدرسة –داخلية بالطبع– من ستينيات القرن الماضي، حين كان امتياز قراءة الصحف التي يحملها إليّ أبي خلال زيارة الأهل الأسبوعية، إنجازًا مُيّزت به دون كل رفيقاتي.

كنت ذاهبة لا محالة إلى مهنة الاتصال بالناس والأحداث، إلى الصحافة، ولكن المجلّة التي أنشأناها في البيت أنا وإخوتي الثمانية على مدى سنتين بقيت صحيفة منزلية تُحرَّر باليد وتُوزَّع على الجيران.

كنت ذاهبة ولا محالة إلى الرسم واقتحام ألوانه، وإلى النحت ومعاركة موادّه، ولكن العصفور الذي كنت أرسمه لم يكن بارع الطيران، والحجر الذي كنت أنحته، لم ينعتق بقوة من حجره.

وما أن تراءت لي إنجازات العالم وإبداعات عظماء الفن، حتى جزعت ونمت في فيء أمنياتي وأحلامي، وعندما استيقظت، ذهبت إلى ما توفّر لي من جامعات ذاك الزمان، إلى الآداب والتربية ومن ثم إلى تاريخ الفنون. كانت سنوات الجامعة اللبنانية، سنوات اكتشاف الوطن والآمال والالتزام... كنا نعتقد، بعد كل تظاهرة، أننا سنبدّل العالم، وأن نقاء هتافنا سيغلب العتمة، وأن العصافير المتطايرة من جباهنا المرفوعة سترسم الأفق الجديد...

رافقني هذا الأمل إلى باريس، عندما أتيح لي، مع وداع أهل قريتي الدّامع، على شرفة المطار القديم، أن أطير، وفي حقائبي دهشة الاكتشاف وتوق المعرفة ونهم الحياة.

في هذه المدينة، تشكّل وعيي بالعالم والوطن والثقافة الإنسانيّة، كما تأكّد انتمائي لهويّتي المتنوّعة، الثريّة المنابع، ولالتزامي الوطنيّ والنسويّ والإنسانيّ.

استعيد أحيانًا، طعم التعب العذب وأنا أسير في شوارعها، أتدثّر ببرد هوائها، ألاحق كلّ التماعاتها، أجاور أهم أساتذتها، وأعدّ نفسي كل يوم بملاقاة توهّج لا يحدّه أفق.

لم يكن سفري إلى باريس، محطّة أساسية حظيت بها وحدي. فقد كانت لكل بنات جيلي، ولقريتي ومحيطي، بوابة عبور لطموحات العديد من فتيات منطقتي في العلم والانطلاق وتحقيق الاختيار الحرّ.

بدأت التدريس، في ثانويّة رسميّة في ضواحي العاصمة، وفي مدرسة خاصة في حضن بيروت، حيث التقيتك من جديد يا سيادة المطران، ندرّس سويّة، ونحاول التجديد في مدرسة متفرّدة تسمح بالحلم والخيال. كان صفّ اللغة العربية يمتدّ من قصائد امرئ القيس حتى "مانشيت" جريدة الصباح، وكان صف التعليم الديني يقلق عن حق، قبل الأوان، مما يمكن أن يكونه هذا التعليم في مجتمع متعدّد يجهل بعضه البعض ويحذر بعضه البعض.

عندما درّست في الجامعة، أعطيت فرح الحياة، ولذّة الاكتشاف المتواصل والملاحقة الأثيرة لتكوّن المعرفة، ومعنى العطاء، والشغف الآسر لمهنة تشكيل العقول والحساسيات والأذهان.

درّست تاريخ الحضارات والعمارة والفنون والأديان، وتذوّقت من خلالها نعمة تذوّق التشابك الإنسانيّ الفنيّ والحضاريّ الذي يهزأ من الصراعات والفروقات منذ بداية التاريخ حتى اليوم. حاولت دومًا، في تعليمي، تعزيز الذائقة البصرية عند طلابي وإطلاق حسّ الشمولية والتداخل الخصب بين الفنون والأدب والشعر والعمارة والفلسفة، بين المكتوب والمرئي والمسموع، كما بين كل حضارات الإنسانيّة.

دومًا، كنت أؤكد لطلابي أنّهم ليسوا في قلب ثقافة مكرّسة، بل على حدود مجهول مُقبل، وأن التعليم، يقين يعاند يقينه، وسلطة تخرّب سلطتها... ولربما أثّر شغفي بهذه المهنة الشفويّة المتحرّكة، الدائمة التشكّل، على إقدامي على الكتابة والنشر، لِما كانت تستفزّه فيّ يوميًّا من تحوّلات أوقن أنها ليست الأخيرة فأترك باب نصي في مهبّ رياحه، وأُحجم عن نشره رهبة وترقبًا لأفضل.

ربما كان هذا التوق الممضّ للكمال عائقًا آسرًا، أتخطّاه بصعوبة وعذاب، إذ يسرقني الكلام من الكتابة ويطاردني في الكتابة شبح اكتمال النص.

ولذا كان لإلحاح الآخرين وحبّهم- وأنا أشيح بوجهي- فضل نشر الكثير ممّا كتبت.

وقد لا أشفى من علّة الكمال في عالم تيقّنت أنه يتغذّى من نقصه، بالرغم من جاذبية التقاط ارتعاشات الحياة في هشاشتها وأبديّتها، وبالرغم من الإحساس المتلهّف على الزمن المتسارع والعمر المنساب.

كان عملي في المجال العام والجمعيّات الأهليّة، محاولة التهام للحياة في تجليّاتها المفاجئة، وحبًّا مستفيضًا لكل آخر لم تتواطأ معه الحياة كما تواطأت معي، وكما أفاضت عليّ من بركتها.

عملت في جمعيات الثقافة وحماية التراث. ولكن عملت خاصّة للنساء، لحرّية النساء، لمجتمع متساوٍ وعادل للجميع... وقبل أن تغادر أمي هذه الفانية كانت تقول لي: "طريقك طويل يا ابنتي". واعتقد أنه لا يزال طويلا بالرغم من ملامح ضوء أكيدة. وكان عملي في مركز "الأونيسكو" في جبيل تطابقًا مع قيم ومفاهيم إنسانية رفدت خيالي ورسمت ملامحي، وأطلقت فكري إلى رحابة الإنسانية، فتعلّمت أننا لا نحقق إنسانيّتنا كمفكرين ومربّين إلا في سعينا الحقيقيّ لتخفيف الظلم والألم في أرجاء العالم. وتعلمت ألا أكتب نصًا دون هاجس حق أو خير أو جمال.

كانت حياتي العائلية اختبارًا يوميًا صادقًا لمعنى العيش في مجتمع متنوّع الأديان يتجافى ويتحابّ بين حدث وآخر. كنا، مع أولادي، الذين اتفقنا أنا وزوجي على حمايتهم من موقع الأذى الطائفي، ننجز نسق تربية منفتحة ووطنيّة، لا بدّ أنها كانت تتواتر في بيوت عديدة تعيش تحدّيات ما نعيش. تعلّمنا أن نعيش التطابق الصعب والمتواصل بين نبض الحياة ونبض الكلام، أن نجعل حبّ الناس إرثًا عائليًا وحاجة للروح. أن نذوّب الأصنام وأن نكثر الأيدي المتصافحة المتصالحة، وأن نحوّل كل انكسار إلى نعمة.

تعلّمنا كيف نبني وطنًا جميلًا يعيش دومًا على جاذبية الحافة، وطن تنوّع سخي، يزهو بتنوّعه الجغرافيّ الساحر، بتنوّعه الحاضر الغني، كي نجعل الإنسان أكثر رحابة وحبًّا وتيقّظًا وحريّة.

في حماس شبابي، كنت أتصوّر الحياة مجالًا نستطيع أن نسير في كل طرقاته، وأن نعبّ من كل مائه، وأن نخاطر في كل دروبه.

وإذ توقفت، أمام مفارق الاختيار، تعلّمت أن الحياة مغامرة تجذبنا بآفاقها، بينما تدرّبنا على القبول المتواضع بحدودنا، وحدودها.

وراودتني المواضيع العديدة، فكتبت عن النساء، من خلال خيال جدتي ومستقبل ابنتي.

كتبت عن الحضارات والأديان، فحظيت بجناتها.

كتبت عن تاريخ الأشياء، فشغفت بتحوّل "اليومي" إلى كنوز مفاجئة، ينعم بها كل إنسان.

تعلّمت ممارسة الحريّة والأحلام، والدهشة أمام عظماء الإنسانيّة كما أمام انزلاق قطرة ندى على ورقة عشب.

تعلّمت أن لا شيء يغسل تجاعيد القلب في هذه الرحلة العابرة إلا إرادة الفرح المعاند لكلّ غيم، وأن السعادة نسج متأنٍّ من خيوط الأيام العادية. وأن اتساع القلب قد يرسم خريطة جديدة لهذا العالم التعس، المحبط لجيلنا، نحن يتامى الستينيّات وحصيلة قيمها ومُثُلها التي فتّتها العالم المعاصر وانتهك ألفاظها.

كم يحلو لي أن نكون معًا متكاتفين في هذا العالم الذي يزداد ضراوة وقساوة، في هذا الممرّ الضيّق الحادّ الذي تجتازه الإنسانيّة اليوم

على طريق العصبيّات والدم، ونحن نعاند برقّة الرّوح، بأخوّة الإنسان، وبالحب، أبهى الفضائل.

أقول لهم، دون مجاملة، إن ما تجوهر فيّ كان من ضَوئكم، وما نقص كان مني.

أذكر رفاق حياتي هشام ورنا وجاد.

أذكر خاصة من فارقوني. ريادة أبي، شجاعة أمي وضحكتها، قوّة رشيده، والتماع أسمهان كشهاب ضائع... أحسّ بفقدانهم كشجرة حرمت من أغصانها.

أنا أزهو بالأخوّة المتينة التي تربطني بكل أعضاء الحركة الثقافيّة في أنطلياس وأشكركم وأشكر الصديق العزيز الرئيس جورج أبي صالح... يا أحبائي، لقد أمسكتم بي أخيرًا... كنت أختبئ منكم وراء شجرات التأجيل والوعد، فوضعتموني أمام نفسي، أسأل وأحاسب وأعد وآمل. أشكر الحضور الكريم القريب والمحبّ، الذي حمله القلب إلى هذه الأمسية .

أشكر سيادة المطران بولس مطر، وقد التقينا منذ أكثر من ثلاثين سنة، وألقى عليّ قبسًا من فكره وحكمته... في باريس عندما كان يدهشه حماسي في جامعاتها وفي تظاهراتها، في بيروت عندما كنت أعمل وأثور واستكين، وفي بيتي، عندما كان يتفقّدني وأنا أنشئ عائلتي

الصغيرة ... كان يعود كالموج، يغسل، يبارك، ويؤكد على هذه العلاقة الإنسانيّة الثمينة التي يتردّد رجعها ويتكثّف –وهذا ما يفرحني– في قلوب أولادي.

يفاجئنا دومًا الزمن، وهو يبعثر اللحظات والأماكن والحنان... أحاول أن أوقظ تفاصيل كثيرة، صورًا عديدة من ألبوم عائلي، لأكشف ملامحي الحقيقيّة، فإذا بها تنساب، تتجمّع كالبرك المطمئنة أو تترجرج كالموج العابث... أنحني... وألتقط ما صقله الزمن من حصاها.

اليوم، بعد مساكنتي الدؤوبة للصور واللوحات والحضارات والفنون، أرنو بحنين كبير إلى أوّل لوحة سكنت عيني، لوحة حائكة الدانتيل، وأنا متيقّنة، وبعد معاركة ونضال، أن باستطاعة النساء أن تنسج العالم، برهافة وإتقان، كما تنسج الدانتيل، في عاديّات أيامها كما في قمم مسؤولياتها.

اليوم، أخيرًا، وبعد مساكنتي العالم، أرنو بحنان كبير إلى شاطئ جبيل وعمشيت... إذ يهبّ هواء بحريّ مسائيّ، فتلتمع من البعيد مراكب الصيادين تلاحق الأسماك المتلوّية بين أعمدة وآثار اليمّ... ويلاطف البحر الشاطئ... فتنام المدينة... في ظلال تاريخ رائع لا تتسع له الذّاكرة!

8 آذار 2006

جذور... وأزاهير

بقلم الأديب جورج شامي

هذا النص الأدبي المشرق خرجت به صاحبته الدكتورة إلهام كلاّب إلى مسرح الحياة وعلى وجهها شموخ النضارة والكبرياء ويخفق قلبها بحبّ البشر بالأطنان، لا تغرّها الأرض اليباب فلها سرابُها وناسُها من تراب.

لقد عرفت الدكتورة إلهام كيف تصون إبداعها بمختلف مندرجاته، فلم تغرّها الشهرة الزائفة التي تذوب كما يذوب اللؤلؤ في الأقداح، وهي تدرك إدراكًا عميقًا منذ البداية أن لا نفع للمنطق إذا أصابته لوثة جنون، فهو كلٌّ لا يتجزّأ، يتغلغل في نصّها كما في تصرّفاتها تغلغل الكريات الحمراء والبيضاء في الجسد الواحد والعقل الواحد بصلابة الفولاذ، وترفض ما قاله الشيطان عندما سئل من يعبد؟ فأجاب: أعبد الإنسان فهو خالقي.

الكتابة عند الدكتورة إلهام "تأسيس" وكأنها إعادة تأهيل متواصل بشكل لا يكتمل ومعنى لا يكاد يتحجّب وراء حزمة من التلاوين والطلاسم، إنها تحاول دائمًا وأبدًا أن تمنح اللغة، وخصوصًا اللغة العربية، أمومتها ونقاءها. ولا يغيب عن أدبها انشطار المكان وانشطار

الإنسان بين روح تتدحرج إلى ذروة الملكوت وعين حسد تُحجم انغراسه في عِبِّ تصرفاتها وأحاسيسها.

نصّها هذا الذي اعتمدته في سيرتها هذه يجعل القارئ يسأل: "هل التمييز ضدّ المرأة كراهية جنس النساء كنوع من البشر؟ ومتى تتمكن المرأة أن تسأل بدون أن تشعر بالذنب: من أنا؟ ماذا أريد من هذه الدنيا غير فرح الذات، ويجب أن تشعر أنها حرة... حرة... حرة...

ولماذا لا يبقى الإنسان أمينًا لإنسانيته ووطنه وجيناته بينما تبقى المرأة أمينة وحريصة على نوعه وجمالها؟ وأنا هنا أتجرّأ وأسأل: هل تعرفين يا سيدتي أن الوطن الملتبسة قوميته في عرف أبنائه ولم يعرف الثورة هو لبنان؟ وأن أبناءه ثوّار يخشون الثورة ويدركون أنهم بلا ثورة فعلية كما لمستُ في مساركِ الإبداعي، لا ثورة سياسية، ولا ثورة اجتماعية، ولا ثورة ثقافية، ولا ثورة اقتصادية، لا ثورة اشتراكية، ولا ثورة قومية.

وذهبت بك تجارب الحياة إلى التساؤل: هل المرأة هي أسمى وأغلى هديّة منحها الله لهذا الكون؟ وهل هي فعلا أقصى عقوبة أنزلها الله بالرجل؟ وأن الله خدع آدم حين سرق ضلعًا من ضلوعه؟

حواء خدعت الله حيت تظاهرت بأنها استكانت عبدة مطيعة لرغباته التي تحرص الدكتورة إلهام أن تعطي دائمًا المثال الصادق الذي لا يساوم ولم يساوم قط على اتخاذ الحياة مسلكًا قابلاً للتبدّل والنكران في كل حال، ولكنها لم يساورها قط الغش والخداع والخذلان في ملكوت الله الأزلي.

المحتويات

الإهداء 5

كان ذلك..7

1 عمشيت... ملعب الطفولة...........................11
2 جبيل... أحلام الصبا 21
3 باريس... شغف الحب والنضال 33
4 تمرّد على النمطية وزواج غير تقليدي 45
5 مركز علوم الإنسان... ومأساة الغياب 57
6 تحدّي الحرب ومسؤولية الأمومة.......................67
7 حلو الحياة ومرّها... 77

حكايات لا تنتهي.................................101
"رفيق"... الأب الطليعي والقدوة 103
من نافذة مكتبي 106
سيّدة البوّابة 110
حائكة الدّانتيل...................................115
جذور... وأزاهير بقلم الأديب جورج شامي 125